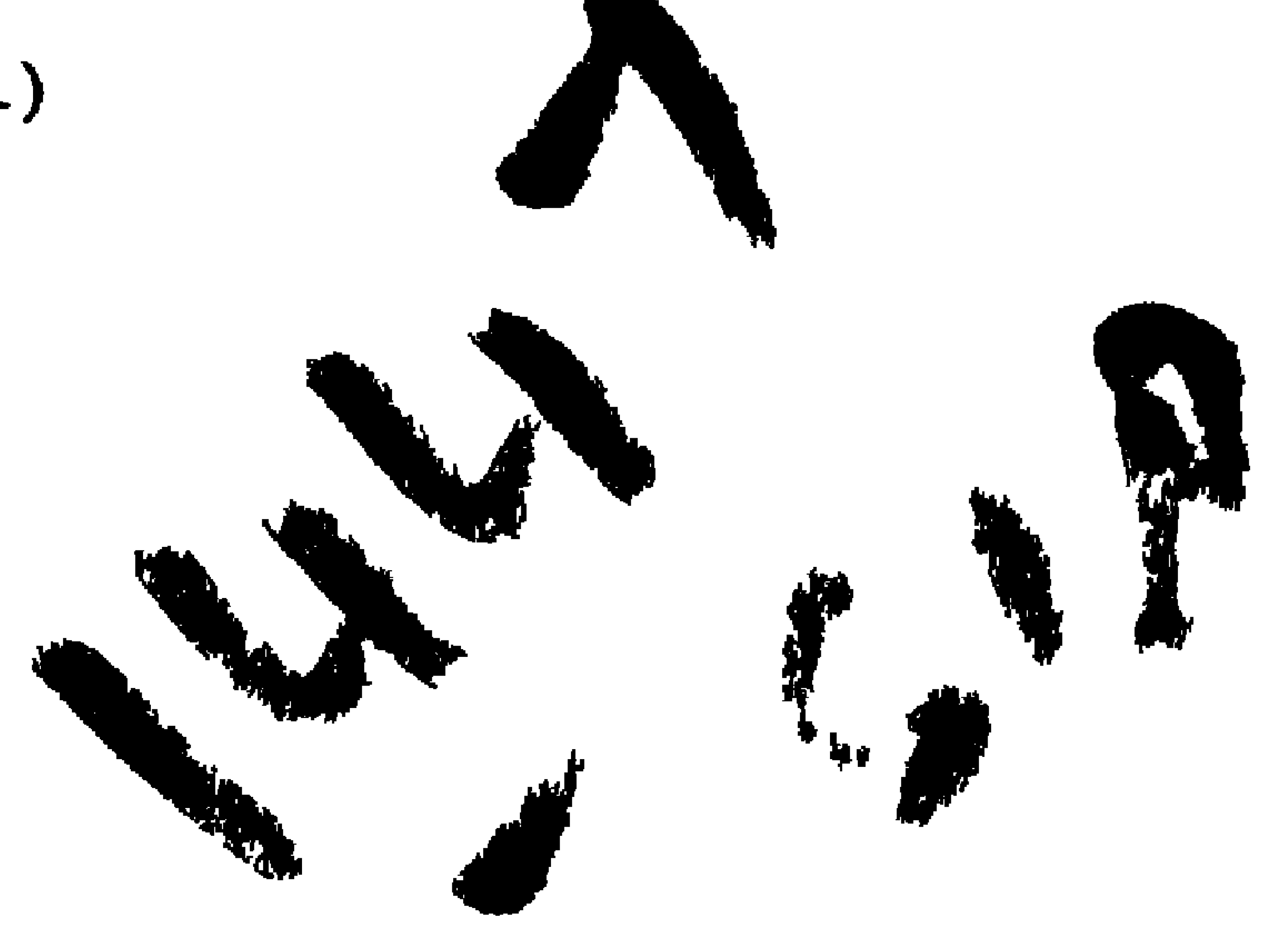
بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ »

(حديث شريف)

« إِنَّ اللهَ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكم ، كما قَسَّمَ بَيْنَكم أرزاقكم .. »

(حديث شريف)





مقدمة

لسنا نريد هنا أن نقدم الى القراء عرضا للاخلاق النظرية والعملية على صور المختصرات الكثيرة التى يزهو بها المؤلفون الغربيون ، اذ يخيل اليهم أنهم أحاطوا بالاخلاق العامة بينما أنهم لا يستحقون هذا الزهو ، لا سيما حين نلاحظ نحن الشرقيين ــ كلما عكفنا على مؤلفاتهم ندرسها بحرية ونزاهة ــ تلك الانحرافات المتعددة التى يندمون على اقترافها أشد الندم عند ما يرون نتائجها المؤسفة « ولات ساعة مندم » .

وليس هذا فحسب ، بل ان تلك المختصرات اسهلة الواسعة الانتشار كثيرا ما تحدث فى انحاء السياسة الدولية انحلالات مخجلة ، وميوعات مسئومة التأثير . وانما نحن نريد ابراز أنه من الممكن ، بل من [illegible] اذ [illegible]

والاجتماعية التى كانت نتائجها حتى الآن موضع الريبة ان لم تكن موضع التبرم والجحود ، وآن نحل محلها أخلاق القرآن التى يسيىء أكثرهم معرفتها ، والتى أسست قواعدها على مبادىء نظيفة رفيعة تتجه الى النفس كلها ، أى الى العقل والروح والقلب ، لان هذه الاخلاق هى وحدها التى تستطيع أن تشتمل على جميع الاغذية التى تحتاج اليها الانسانية جمعاء . وهذه الميزة هى التى تضمن لها التفضيل على كل ماعداها .

ومنشأ هذا التفضيل ان الاخلاق هى حقيقة واقعية تفرض نفسها على الانسان فرضا ، وهى الأساس فى حياة كل مجتمع ، بمعنى أنها تسيطر على جميع مشاكل السلوك والاعمال البشرية أو من شأنها آن تكون كذلك . ولا جرم أن أبسط الملاحظات تظهر لنا انه عندما يريد الانسان أن يفعل شيئا يسمع صوتا داخليا يتفاوت وضوحه كثرة وقلة بتفاوت صفائه ونقائه ، ولكنه حاضر دائما . يأمر ببعض الأفعال وينهى عن البعض الآخر . انه لصوت خالد يجب على المرء ان يطيعه اذا أراد أن يحتفظ بالسلام الداخلى ، أو السكينة الباطنية ، انه هو الضمير الاخلاقى .

وفى الحق أنه اذا كان هناك شىء متفق عليه باجماع كل العقلاء من غير استثناء فهو قبول وجود هذا الضمير الخلقى أو تلك الخلقية التلقائية التى يلحظها الانسان فى نفسه منذ أن أدرك ذاته كما سنفصل ذلك فى موضعه .

واذن فالاخلاق ليست من ابتداعات الفلاسفة ، ولا من اختراعات المشرعين ، ولا من تعاليم المربين ، وليس وجودها مقصورا على كتب الأخلاقيين ، ولكنها حقائق واقعية تحيا فى مظهر مزدوج نفسي واجتماعى لا يختلف عاقل فى وجوده .

والاديان العظمى التى نزل بها الوحى ، ثم انمحى كثير من مبادئها وبقيت منها معالمها الفطرية ، قد اتخذت من الاخلاق تعاليمها الرئيسية التى بقيت حتى الاذن تشفه عن سماويتها وفطريتها الأولى كديانة مصر الأثرية ، والهند والصين القديمتين .

واذا أغضينا عن الأديان مؤقتا وألقينا نظرةعاجلة على الفكر الغربى ـ وهو الذى جعل يقصى الاخلاق اقصاء مطردا عن جميع العناصر الدينية التى كانت تسندها ـ ألفينا أنه يجهد نفسه فى أن يشيد علما أخلاقيا مستقلا يتباهى به ، وهو لا يشتمل على شىء ذى قيمة حقيقية اذا استثنينا فكرة « الواجب » التى استخلصها « كانت » والتى كانت مبعث مجده وتخليده عند الغربيين ومن سار على نسقهم من الشرقيين الذين لايعلمون عن التراث الفطرى الشرقى شيئا يذكر ، لأننا لو نظرنا فى القرآن نظرة دقيقة لألفينا أنه قد جعل فكرة الواجب والالتزام الخلقى أساسا لكل أخلاق جديرة بهذا الاسم أو قمينة بالاحترام والاجلال .

أما الاخلاق النظرية التى تعاقبت على مر العصور ، فهى مؤسسة على أكثر المبادىء تباينا وأشد الفكر تعارضا ، فأخذ هذه المذاهب مثلا أسس على العقل ، والآخر أسس على السعادة

والثالث على المنفعة ، والرابع على « الجاذبيــة » والخامس على الحياة أو « البيولوجية » والسادس على الغــريزة الاجتماعيــة وهلم جــرا .

غير أنه ينبغى آن يلاحظ أن هذه المذاهب الأخلاقيــة التى انسق بعضها على بعض من الوجهة النظرية ، تلتقى جميعها — بدافع عامل يسبب تجاوزها — عند نقطة واسطة وهى الاتفاق التام فى السلوك العملى . ويعنى هذا هو أنه لا يوجد واحد من بينهم يستطيع الخروج على أوامر الضمير الخلقى الذى أمــلى بأمــر خالقه على بنى الانسان منذ وجودهم عددا من القواعد الأساسية اتفق الجميع على انزالها مزلة القداسة والاجلال . وهى لا تتغير عبر الازمان والامكنة . وهى التى يطلق عليهــا اسم « الحقائق الخلقية » أو أسس « المثل العليا » التى لا تقبل التزلزل والتى نلتقى بها دائما فى القرآن . ومن هنا أتت أهمية الضمير الخلقى الذى نبته العليم الحكيم فى داخل كل نفس بشرية ليرشدها الى الخير والشر ، ويأمرها بالاول وينهاها عن الثانى ، ويربحها اذا نفذت أوامره ونواهيه ، ويسقيها اذا هى تمردت عليه وخرجت عن طاعته وقد وأجد الله جل جلاله هذا الضمير فى النفوس رحمة بها ليرافقها فى غيبة الرسالات ، أو عند تبدل الاوامر السماوية ، أو تشوهها بعوامل التجيل ، أو المادة أو سيادة النفعية .

وينبغى أن يعلم هنا أن الاخلاقيين كانوا منذ القدم ولا يزالون حتى الآن يؤمنون بوجود هذا الصوت الخفى ، ويتساءلون عن

أصله . ولكى نجمل فى عبارة مقتضبة تلك التأملات . نختار تصريح ذلك العالم الاجتماعى الشهير « [illegible] » الذى يقول فى صفحة ٢١٠ من كتابه [illegible] : « ان ضميرنا الاخلاقى اذا نظرنا اليه [illegible] الينا سرا خفيا »

ونحن لا يسعنا هنا الا أن نسجل [illegible] بنور القرآن ، لا يمكن أن يصطدم بشىء من هذه التقلبات . ومن العجب العاجب أننا نرى التحدث على الدوام فى الكتب الغربية عن الاخلاق الاغريقية والمسيحية والكانتية والاخلاق المعاصرة « البيولوجية » أو « الاجتماعية » ولكننا لا نرى هذه الكتب ألبتة تتحدث عن الأخلاق القرآنية كأنها لم تكن احدى وقائع الزمن الهائلة التى غيرت وجه التاريخ ، والتى هى قبل كل ذلك تنظم حياة أكثر من خمسمائة مليون من الأنفس فى بقاع العالم المختلفة . ولا ريب أن ذلك الاهمال من جانب العلماء الغربيين ثغرة فى بحوثهم يجب ان يقوم المسلمون بسدها ، لأنهم هم أول المسئولين عن ذلك ، ولا يستطيع أحد أن يحل محلهم فى هذا الشأن أو أن يؤدى عنهم هذا الواجب الأساسى ، لاسيما ان مواد هذه الاخلاق الاسلامية موفورة لديهم على صورة لم تتيسر لأحد غيرهم من العالمين ، وهى تؤلف شموخا عملاقيا يأسر عقول المتأملين ، ويسحر قلوبهم قبل أن يبهر أعينهم بكونيته وتخطيه كل محدودية ، لانه ليس نظريا فحسب ، بل هو عملى تصديقى قبل كل اعتبار .

واجب الباحث المسلم الحقيقى اذن هو ان ينتزع القانــون الاخلاقى الخالد بمبادئه وقواعده من القــرآن والاحــاديث وان يفصله من الأغصــان الاســلامية الأخر كالالهيـت والتشريعيات والتنسكيات التى عنى المسلمون بدراستها منذ العصور الذهبية حتى الان ، وسار الباحثون الغربيون فيها على أنســاقهم مما لم يتيسر للفروع الاخلاقية التى لا تزال شبه مجهولة فى الشرق ، لان أعلام مفكرى الاسلام قد عنوا بالاخــلاق الاغريقيــة (١) وان صبغوها بلون اسمي ، فتسبب ذلك فى اهمالها فى الغرب طبعا .

ونحن على يقين من انه لا يوجد لدى المسلمين أى مسوغ لهذا الاهمال ، لان التعاليم الاسلامية تضع قواعد شاملة مفصلة ومناهج دقيقة واضحة لم يتطاول أعظم الأخلاقيين الى عليائها . واين جهود الأرض من شمول السماء ؟ فعندما يتأمل المؤمن فى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فيلقى أمامه الطريق المنير المستقيم مرسوما فى وضوح وجلاء ، فيهتدى الى أفضل الوسائل التى يعمل بمقتضاها على أتم وفاق مع أوامر ربه وضميره وعلى أحسن الصور التى يقضي عليها حياته مطمئنا مستريحا من عناء الانحراف الذى يعذب الخاطئين والآثمين ، ويحس بلذة التعقل وكرم الخلق حــين يجد نفسه قد ترفع عن ذلك السقوط المروع الذى هــو من أخطــر العيوب الطبيعية التى اكتنفت حياة البشرية فكانت سببا فى متاعبها وآلامها الا من عصم ربك وفى مقدمة هذه العيوب الأنانية البغيضة

---

(١) يلاحظ استثناء الامام الغــزالى وامثاله من اولئك المفكرين .

التى تدفع المرء الى الغرور والاعتقاد بأنه هو من العالم موضع المركز ، بل موضع الصدارة . أو المنفرد بالعناية .

ومما ينبغي تسجيله هنا قبل ان نغادر هذه النقطة هو أن الباحث الدقيق النزيه ، لايكاد ينظر فى القرآن أو الأحاديث الصحيحة نظرة متعمقة حتى يجد فى آيات الأول ، وجوامع كلم الثانية آكمل القواعد التى تحصى واجبات الانسان المتنوعة نحو ربه ونفسه واسرته وأمته والانسانية جمعاء .

ومعنى هذا ان الاسلام قد ثبت اطارات متينة « للحقائق الاخلاقية » التى ينتهل منها الانسان عن طريق ضميره جميع ما يحتاج اليه فى حياته العملية . وما يؤسس عليه سعادته التامة وهناءته الروحية والمادية ، غير أن هذه الاطارات ليست ضيقة ؛ بل هى رحبة متسعة حتى تضمن الحرية الشخصية ، وتحقق الجهود الفردية التى لو انسحت لصارت حياة الأمم متماثلة جامدة لاروح فيها ولا حركة وبعبارة أوضح لطبقت فيها القوانين تطبيقات آلية ميكانيكية تتعارض مع المسئولية التى هى أساس كل تقدير دنيوى أو أخروى ، وفوق ذلك فان هذا الجمود معناه التخلى عن كل شخصية ، وهو بالضبط ما لا يريده الاسلام الذى يقصد ــ على الضد من ذلك تماما ــ تكوين شخصيات قوية متعطشة الى جهود عقلية واخلاقية .

حقا ان القواعد الاخلاقية الاسلامية تقيم ــ قبل كل شىء ــ حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر عامة،ولكن هذه القواعد

نبقى مرنة لكى تترك للاجيال المتعاقبة اختيار الصور التى توفق بين [illegible] الروحية الحضارية التى لا تمس الزلزل [illegible] [illegible] [illegible] من خلال التجارب المرئية والأحداث الزمنية المتعاقبة لكى [illegible] الزمن [illegible] أتم [illegible] التفكير والتعبير عنها [illegible] التى [illegible] دون [illegible] جانب من جوانب المبادىء الاسلامية

وعندما ينص الكتاب الكريم او السنة على هذه [illegible] الواقعية ، وتلك القواعد العملية ليرشدنا بها [illegible] بل يدعوا بنى الانسان كافة الى معرفة الحق والخير لا [illegible] عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما يحضرانهم على الدوام الى التفكير والتأمل ليحرزوا الحكمة التى هى جماع الحق والخير أو العلم والعمل « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر الا أولى الألباب » (سورة البقرة) . « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (سورة الحديد) .

ولقد أراد البارى جل شأنه أن تكون عقائد المسلمين مؤسسة على التأمل العقلى . وهو ذلك النور الذى ثبته فى نفوسهم ليضيىء دواخلها ولتسطع أنواره على كل مايعرض عليها من جوانب الوجود لتميز حقائقه من زوائفه حتى لا تؤخذ على غرة فيكون لها العذر فى أن تجحد أو ألا تفهم . ولهذا لم يكن الجهل عذرا أمام الاسلام ، لأن التقصير فى المعرفة حينئذ يكون من جانب الأناسى ،

لا من جهة العليم الحكيم . « ألا يعــلم من خلق وهــو اللطيف الخبير » والذى لا يؤاخذ الناس الا بما كسبوا .

ومن حكم الأمر بالتأمل هو انه سبحانه يريد أن يعود البشر — الى جانب ما تقدم — على ان تكون لهم شخصيات مستــقلة فاهمة و[illegible] [illegible] الخلقية [illegible] العزوة [illegible] .

ومن هنا يتبين ان الاسلام الذى يدعو المؤمن الى التفكير فى جميع انحاء الكون ليسترشــد بكشف أسراره ويتمتع بتجليــة خفاياه ، هو كذلك يحض على التأمل فى الاخلاق بوصف انها من أهم نواحى ذلك الوجود . وليس هذا فحسب بل ان الاو امــر الالهية تكلف العقل بالتنقيب فى الكتاب الكريم و لأحاديث النبوية الشريفة عن الوقائع الاخلاقية العظمى التى يحدثنا التاريخ انهــا قد مثلت للدراسة والتحليل والحكم فى كتب المفكرين منذ العصور الاثرية ، وذلك مثل الضمير الخلقى والالتزام والواجب والمسئولية والنية والمجهود والجزاء . فاذا قمنا بهذا التنقيب ألفينا أن الوحى الالهى قد أحاط بها ولم يهمل منها شيئا ، وانه وضع لها عناصر عقلية تضمن ايضاحها وفهمهــا حتى لدى غيــر المســلمين بحيث يعقلونها ويدركون غاياتها ويتمتعــون بثمارها دون اســتعانة ظاهرية بالدين ، وليس فى هذا اية غرابة ، لأن منزل الوحى هو الذى أودع فى ذات [illegible] الاخلاقية عناصر قابلية [illegible]

كما أودع فى العقل قوة قابليته للفاهمية بحيث نستطيع أن نجد فى القرآن والاحاديث أسمى مما وصل اليه المفكرون من غير المسلمين وأعظم من مقدار ما بين المحدود واللا محدود من فوارق .

ولقد أتاحت لنا معرفتنا بمنتجات الفلاسفة والمفكرين منذ أن عرف العقل نفسه حتى الآن ان نوازن موازنة ظاهرة خفيفة بينها وبين القرآن فألفينا ان كل نتاج الفكر فى كل مشكلة عقليـة أو اخلاقية ـ بعد معـارك طويلة ومحاولات مسـهبة ـ ينتهى الى ترجيح مذهب على آخر بينما نرى أن القرآن يحيط بها احاطـة تامة كاملة يقصر البشر عن ادراك مداها ويعترف الحكماء بأنهـم دون منتهاها .

غير أن القرآن يكتفى فى كل تلك المشكلات بما ينفع الانسانية وينقذها من وحدتها ، ويسـمو بها الى ذروة المثالية ، ولكنه لايعنى بالتعريفات ولا بالحدود الجامعة المانعة لأنه يعلم ان الانسـان يمكن أن يكون مناضلا دون حاجة الى الحدود المنطقية للفضيلة .

الطوابع الأساسية للأخلاق الإسلامية

ان الطوابع المميزة للأخلاق الاسلامية فى العموم هى انها قبل كل شيء لاتستهدف ربحا فرديا ، ولا ترمى الى غاية شخصية أو منفعة خاصة ، وانما هى تقصد الصالح الفـردى والاجتمـاعى والانسانى . وهى كذلك مصوغة فى صيغة رسالة الهية يراد نقلها الى البشر . أو هى تعاليم سماوية موجهة الى العقول والارادات الانسانية لتختار بين اتباعها وعصيانها فى حرية تامة . وفى كل الاحوال هى النور السماوى الذى يرشد الجميع الى طريق الهدى الذى ينتهى بالسائر فيه الى الاستقامة والصلاح . وذلك مثل الحقيقة والعدالة واليقـين والعلم والحكمة والتماسـك الذى لا يقبـل التزلزل . وبالاجمال هى كل ما يبرىء القلوب من امراضها ويرتفع بالنفوس الى النبل والكمال .

وسنرى فى هذه العجالة ان الأوامر والنــواهى الاســلامية تتأسس على أسس متنوعة بأنواع مراحل الحياة وظروفها المختلفة ولكنها تلتقى كلها فى النهاية عند غاية واحدة هى الخير العام .

حقا ان جميع الاوامر الالهية هى عند المؤمنين فى درجة واحده من حيث حقيتها ووجوب العمل بها ، ولكننا سنختار هنا الاحوال التى تؤسس فيها المبادىء الاسلامية الالتزامات على أسس عقلية مسوغة بتقييمات خلقية مرتبطة بهذه الالتزامات لا أكثر ولا أقل . والحكمة فى هذا هى ان تلك الامثلة الرائعة المجردة عن الغايات تسترعى انتباه غير المؤمنين بسبب اتجاههــا الى العقــل ونقائهــا ونظافتها التى تبهر الجميع لأنها تحض على الخير للخير أول الأمر لا للظفر من ورائه بأى شيء آخر « ولا تمنن تستكثر » ســورة المــدثر .

غير ان الدراسة النظرية للاخلاق الاسلامية لا تكفى وحدها ، بل ينبغى أن نحيا فيها حياة فعلية تامة وان نعرف قواعد الأخــلاق العملية الممتزجة امتزاجا كاملا بحياة بنى الانسان .

ومن ثم فان القانون الاســلامى الواقعى بأحــواله المتعددة وأنواعه المتشعبة التى تواجه التجارب اليومية هى تتجاوب تجاوبا كليا مع وجهة النظر هذه وتقدم الى تأملاتنا مادة غزيــرة كافــة لا نحتاج بعدها الى شيء فى تحقيق السمو والسعادة الدنيــوية والأخروية .

وسنلتقي اثناء هذه الدراسة الموجزة بذلك القانون الواقعي أو تلك الأوامر الالهية والعملية التطبيقية في كل خطوة من خطوات الحياة ، ولكننا رأينا من الخير ان نشير هنا اشارة سريعة الى هذه الأوامر الاسلامية بادئين بالاشارة الى الأخلاق [illegible] مرجوته لدى جميع الشعوب التي لم تنحرف عن جادة [illegible] وهي ما تدعى بـ « الحقائق الاخلاقية العامة » ثم نثني بالأخلاق التي عليها طابع الاسلام ، وعلى الأخص ما ليس له نظير منها في هذه الدراسة العاجلة التي يلجئنا التقييد والتحديد الى ايجازها . واليك هذه الاشارة العابرة التي نرجو الا تؤدي المبالغة في ايجازها الى خلوها من الفائدة .

الحقائق الأخلاقية العامة :

الآن ــ وبعد هذه الالمامة العامة ــ نود أن نشير هنا الى طائفة من المبادىء الاخلاقية الاسلامية التي نزلت لدى الجميع منزلة الحقائق المطلقة التي لا ينازع في حقيتها أحد من العقلاء سواء أوردت في القرآن والاحاديث على صورة الامر أم على صورة النهي . ومن تلك المبادىء ما يلي :

١ ــ الأمر بالعدل وجعله على قمة الفضائل « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (سورة النحل) « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (سورة النساء) . « وقد خاب من حمل ظلما »

(سورة طه) « انه لا يحب الظالمين » (سورة الشورى) . « انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » (سورة الكهف) . وسنفرد للعدل حديثا مفصلا فى أواخر هذا الكتاب .

٢ ــ احترام الحياة الانسانية وعدم المساس بها الا بالحق الثابت الذى لا شبهة فيه بأى وجه : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون » . (سورة الأنعام) .

٣ ــ الامر بفضيلة الصدق والنهى عن رذيلة الكذب مهما ترتب على ذلك من نتائج . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (آية ١١٩ من سورة التوبة) . « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (آية ٣٠ من سورة الحج) « ان الصدق يهدى الى البر ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . (رواه البخارى)

٤ ــ النهى عن رذيلة النفاق . « ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » (آية ١٤٠ من سورة النساء)

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » (آيتى ٢ و ٣ من سورة الصف) .

(٥) الأمر بالأمانة والنهى عن الخيانة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » (آية ٥٨ من سورة النساء) « ان الله

لا يحب الخائنين » (آية ٥٨ من سورة الأنفال) « ان الله لايحب كل خوان كفور » (آية ٣٨ من سورة الحج .)

(٦) النهى عن الزنا « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » (آية ٣٢ من سورة الاسراء) « والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » (آيتى ٦٨ و ٦٩ من سورة الفرقان)

(٧) الرفق بالوالدين والاحسان اليهما « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (آيتى ٢٣ و ٢٤ من سورة الاسراء) » قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا . » (آية ١٥١ من سورة الأنعام) .

الاخلاق الشخصيه :

(١) يحرص الوحى الالهى فى جميع الظروف والأحوال على أن يأمر المؤمنين باختيار أفضل الاعمال وأسماها وبالتسابق والتنافس على تحقيق هذه المثل : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » (آية ٢ من سورة الملك) . « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات . » (آية ١٤٨ من سورة البقرة) .

(٢) ومما يأمر به الوحى المسلم فى مقدمة أسمائه البدء بتطهير النفس من أدرانها التى تصيبها من الاحتكاك بعرصة [illegible] قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »
(آيتي ٩ ـ ١٠ من سورة الشمس)

(٣) ومن الفضائل الجوهرية فى الاسلام امتلاك النفس والسيطرة على الأهواء : « فلاتتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (آية ١٣٥ من سورة النساء) .

(٤) ومن هذه الفضائل كذلك فضيلة الصبر والثبات والجلاد « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا .. » (آية ٢٠٠ من سورة آل عمران) .

(٥) فضيلة الاحتياط والتحقق من صحة ما يروى من الانباء أو ينقل من الأقاويل قبل الشروع فى العمل أو تنفيذ النتائج المترتبة على هذه الاقاويل « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (آية ٦ من سورة الحجرات) .

(٦) فضيلة الشرف الممثلة فى جميع المعاملات وعلى الأخص تأدية الأمانات الى أهلها دون ادنى مساس بها « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (آية ٢٩ من سورة النساء) .

(٧) فضيلة التوسط فى كل شيء والاعتدال فى كل أمر وعدم الافراط والتفريط فى أية ناحية من نواحى الحياة « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (آية ٦٧ من سورة الفرقان) .

[illegible] ونظهر بالتقوى [illegible] والتصدق على [illegible] الناس [illegible] الاعلان [illegible] من الفضائل. « والذين [illegible] ينفقون أموالهم رئاء الناس .. » (آية [illegible] من سورة النساء) .

(٩) التحذير من الغرور الذى هو من أسد الرذائل مقتا عند الله لأنه يقف من صاحبه موقف العقبة الكأداء فى سبيل كل ارتقاء وتقرب من الله « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » (آية ٣٧ من سورة الاسراء) .

الاخلاق الاجتماعية :

(١) فضيلة التعاون على الخير ومساعدة الكل للكل على تحقيقه بقدر المستطاع ، ومحاولة دفع الشر بأنواعه وبكل قوة ، وعدم التعاون عليه باختلاف نواحيه « .. وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان . » (آية ٢ من سورة المائدة) . « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف [illegible] عن المنكر واولئك هم المفلحون » (آية ١٠٤ من سورة آل عمران) .

(٢) فضيلة الاصلاح بين الناس والعمل على سيادة السلام والوئام « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » (آية ١١٤ من سورة النساء) .

(٣) فضيلة الاحسان كثيرة التعدد والتنوع فى الاسلام الى درجة قل ان تظفر بها فضيلة أخرى وسنختار من الامر بهـذه الفضيلة مثلين رائعين : أحدهما يتعلق بالنية ، والآخر ينص على جودة الشيء المحسن به « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم . وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » (آية ١٧٢ من سورة البقرة) « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم » (آية ٩٢ من آل عمران) .

(٤) رذائل السخرية والتنابز بالألقاب وسوء الظن والغيبة والتجسس « ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (آيتا ١١ ، ١٢ من سورة الحجرات) .

(٥) رذيلة الخيانة وقد نهى عنها الوحى لآثارها السيئة فى الاضرار بالغير وتقويض المجتمع تحت ستار الغش والخداع « ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما » (آية ١٠٧ من سورة النساء) .

الاخلاق السياسية .

منذ الحقبة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، جعلنا تشاهد لدى الشعوب عامة نوعا من التقزز والامتعاض من السياسة بتفاوت مظهرهما والتعبير عنهما كثرة وقلة بتفاوت الظروف والأحوال التى تدعو الى نعسد الغموض ، غير أن الأضواء الناشئة عن الأحداث ، أو المنبثقة من نضوج الشعوب ، قد أخذت تنتشر شيئا فشيئا حتى أوضحت معالمها ، وجلت أسبابها ومصادرها ، فهبت أصوات واعية مسئولة ، وطفقت تعلن أكاذيب السياسة الداخلية الحزبية ونفاقها وأخطارها من جهة ، وكشفت عن وجه السياسة الدولية الكالح المرائى الذى يتحدث عن العدالة ، وهو أبعد ما يكون عن تطبيقها أو التفكير فيها . وقد نبهت هذه الأصوات المدوية المنادية بالحذر من تفاق السياسة عددا من العقول الراجحة المثقفة الى تلك الهوة الواسعة التى تفصل السياسة من الأخلاق فى العصر الراهن . ولو أن كلا منهما ينادى على التوالى بالعدالة المطلقة ، بل ان هذا النداء المتوالى ، وتلك الدعاية الزائفة للعدالة ، ومشاهدة نتائجهما المتناقضة مع الواقع أتم التناقض ، كل ذلك قد أسهم فى فتح عيون السواد الأعظم

من الشعوب . ولا غرو فان الأمم مفطورة على الاحتفاظ بكثير من الجوانب الخلقية الجبلية التى أنبأنا الاسلام بأصولها وفطريتها لدى الانسانية على السواء . وهذا هو سر انعطاف جميع الأمم من غير استثناء الى تثبيت العدالة الحقيقية . وهو كذلك منشأ قوة الحاسة الخلقية فى نفوسها الى حد أن تزيفها ، أو تلويثها بيد السياسة يثيرها ، ويدفع قلوب أبنائها الى الامتعاض . وهذا ينتهى بها حتما الى الارتيابية السياسية . ونحن نعلم أن الارتيابية فى السياسة تصل بها الى العجز والاجداب التامين كما هو شأنهافى الفلسفةأثناء عهود الشك أو«اللاأدرية» وأن العالم الذى نحن فيه يتطلب الآن حياة قوية متسقة أكثر مما كان يتطلبها فى أى وقت آخر .

على أن هذا الاضطراب ، وتلك الفوضى اللذين أصابا كثيرا من الأمم قديمها وحديثها ، لا ينبغى أن يصيبا المسلمين المتمسكين بدينهم لأن الاسلام يمتاز بالاشتمال على الاتساق فى العدالة بين السياسة والأخلاق ولا يتعلق الأمر الا بنا ، وبممثلينا فى أن نقتبس هذه المبادىء الرفيعة من ديننا ، وأن نطبقها أحسن التطبيق ، والآن يجب علينا أن نبين كيف اتسعت الهوة بين السياسة والاخلاق وما هو موقف الاسلام من هذه المسألة .

لكى نفهم أن هذه الثنائية بين السياسة والأخلاق اللذين يتحدثان كلاهما باسم العدالة قد أنتجت نتائج عملية لا يمكن التوفيق بينها وينبغى الصعود على سلم التاريخ الى عهد الاغريق

الذين يصورهم « نيتشا » فى هذه الناحية فيقول : « عندما تتحدث عن الاغريق ، انما تتحدث عن الأمس واليوم . فالحرية التى نملكها للكتابة عنهم هى التى تسمح لنا بالصمت عن قوم آخرين ، لأن الاغريق هم الذين يسرون فى آذن القارىء المتأمل ما يستفيد منه . وهم الذين ييسرون لانسان زماننا مهمة تسجيل الأشياء التى تدفع الى التأمل » .

ولكى تتغلغل الى أعماق السياسة الوضـعية ، ينبغى أن تتجه الى المؤرخ الاغريقى « توكوديديس » الذى امتاز بدرجة عالية من ذكاء بنى جلدته ، وصفاء قرائحهم ونزاهتهم ، والذى استطاع أن يقرأ ما فى نفوس الأناس ، وأن يكشف أسرارا كبرى لولا هو وأمثاله ، لظلت خافيـة بين ثنايا الزمن ، ومما نستنير به من كتب ذلك المؤرخ فى هذا الشأن ما سـجله فى الكتاب الخامس من (تاريخ الحرب البيلوبونيـة) عن تلك المحاورة الشهيرة التى دارت بين مستشارى جزيرة (ميلوس) وسفراء (أتينا) وهى القصة التى تحتوى على تلك الأسرار التى يضعها الساسة المعاصرون تحت عنوان « السياسة الوضعية » .

ومجملها أن جزيرة ميلوس كانت تريد أن تظل محايدة بازاء الحرب التى اشتعل أوارها بين (اسبارطا ، وأثينا) . غير أن أحد الجيوش الأتينية لم يلبث أن نزل الى الجزيرة بغتة وطلب من أهلها فى حزم اما الخضوع والانضمام اليه ، واما الحرب ، ولما كانت مليوس ضعيفة ، فان اشتراكها فى الحرب معناه القضاء

عليها نهائيا . ولهذا يسأل مستشاروها قائلين : « أهذا عدل ؟ ؛ فيجيبهم سفراء أثينا بقولهم : « عندما يتعلق الأمر بالقضـــايا الانسانية الهامة ، لا يتحقق الخضوع للعدالة الا اذا اقتضت ذلك ضرورة . والقاعدة الوحيدة فى هذا هى السلطان بالنسبة الى القوى والخضوع بالنسبة الى الضـــعيف ، وهنا يســـأل مستشارو الجزيرة قائلين : وهل هذا الخضوع يـــكون مشرفا للضعفاء ؟ فيرد سفراء أثينا بقولهم : « احذروا فعندما يترك المرء نفسه ينزلق وراء كلمة الشرف ، فانه يكون ممن تستهويهم الكلمات . أما القوى فلا يحتاج الا الى التبصر ، وفى كل مكان توجد فيه القوة تقتضى الضرورة المحتومة أن توجـــد السيادة . ولسنا نحن الذين وضعنا هذا القانون ، وانما هـــو أزلى ، حقا ان هذا القانون فى اعتقادهم قاس ولكنهم يرون أنه هو الوحيد الذى يمكن أن يقر النظام فى العـــالم . وهو ليس منافيا للعدالة ، لأن مصالحها اذ ذاك تتحقق فى ألا تتبادل الهدم فيما بينها . واذن فان العدل عندهم ليس مضادا لقانون القوة ، وانما هو حالة خاصة من حالات هذا القانون ، وهى التعادل بين القوى المتساوية .

وفى هذه النصوص القديمة المأثورة عن الاغريق تتبين جليا عناصر الساسة المستعملة اليوم بين الكتلتين : الغربية والشرقية . ومنشأ مناوراتهما التى ترمى دائما الى الاحتفاظ بهذا التعادل ، وتلك هى السياسة المنبثقة من النقص البشرى .

ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن الاغريق قد أجمعوا على وجوب سيادة هذه المبادىء التى ترى ضرورة تحكم القـوى فى الضعيف كلا . فـ (أفلاطون) يلاحظ وجود هذا القانون ولكنه يصلحه اصلاحا أساسيا ، اذ يقرر أن على الحكماء أن يسودوا ويأمروا ، وعلى الجهلاء أن يخضعوا ويطيعوا والا لما وجـدت فى العـالم مثالية ولا عـدالة ، ولأصـبحت الصـدارة للقـوة الوحشية على الحكمة . ولا غرو فان هذه الشـخصية العظمى المنبعثة من فطرة أشد عظمة والتى شاءت السماء أن توجد فى اغريقا أثناء عصر الانحلال والتدهـور الذى أفسـدته تعـاليم السوفسطائية التى أطلقت غرائز القوة الوحشـية من عقالها ، وقدمت الغلبة البهيمية على الحق والاستقامة . فلم يكد يشاهد هذه الحالة الأسيفة حتى هب يقاومها بكل ماله من قوة ، وبدأ بنفسه فحكم قوته الناطقة فى قوتيه الشهوية والغضبية . وبهذا قدم لمعاصريه وللأجيال الآتية أصدق المثل الرائعـة التى تصلح لأن تكون قدوة نموذجية للانسانية جمعاء ، ولقـد بدأ دراسـته هذه باستكشاف ذلك الظل السميك الذى كان يخفى التلالؤ الاغريقى والذى هو « الحاجة الى سيادة القوة التى لا تهدف الا الى تربية مادية فظة » . وهكذا صمم أفلاطون على أن يمحو كل هذه الظلال الكثيفة ، وأن يحل محلها طموحات سـامية نبيلة وهى الأهداف الفلسفية التى استطاعت ــ لحسن حظ البشرية ــ أن تأسر عقول الشباب ، وتسحر قلوبهم . ومن هؤلاء وحدهم تألقت الأجيال المقبلة بسبب ما أقره فى رؤوسـهم من فـكر :

« العدالة فى ذاتها » و « الخيرية فى ذاتها » الى غير ذلك مما صار ، بفضل تعاليمه ، مألوفا لدى الخاصة والكافة .

ومن أهم ما يلفت النظر عند أفلاطون هو أن العدالة ليس معناها التعادل بين قوتين متساويتين وهى أيضا لا تنحصر فى طاعة قوانين الدولة مهما كانت حسنة ، وانما هى عنده وجـوب وجـود اصلاح سياسى كامل تـكون فيه العدالة هى الفضيلة الأساسية ، أى عماد جميع الفضائل أو جماعها كلها .

وكذلك « أرسطو » يحتفظ للعدالة بنفس العنصر الأخلاقى أى أنها هى التى يجب أن تسود كل علائقنا مع الآخرين . ومنذ عهد هذين الحكيمين لم تتعارض السياسة مع الأخلاق قط ولو نظريا على الأقل ، بل ظلتا مترابطتين فى نفوس البشر ولو بالقوة لا بالفعل كما يقول الفلاسفة .

بيد أن هذا الكفاح الجدى الذى قامت به الفلسفة لتنظيف السياسة من أدرانها ، واخضاعها للاخلاق لم ينجح فى هـذا التطهير كل النجاح ، بل ان هذا النبع الصغير الذى بدأ تمجيد القوة ينبجس فى عهد « توكوديديس » ضئيلا اول الأمر قد جعل يتسع ويمتد حتى صار نهرا للظلم والطغيان . ولكن ممثليه كانوا دائما يضعون الأقنعة على وجوههم الكالحة زمنا طـويلا ليخفوا وحشيتهم متحككين بالعدالة دائما خـوفا من حـكم التاريخ الذى لا هوادة فيه ولا رحمة . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى تم انتصار المذاهب الوضعية والمادية فى القرن

التاسع عشر وكشف أشياعها النقاب عن نفاق السياسة ، وحطموا الزجاج الذى كان يحجبها نوعا ما ، فظهر المجون على أتم صوره معلنا ان السياسة شيء والأخلاق شيء آخر . وقد صور هؤلاء الوضعيون تلك القطيعة بين الأخلاق والسياسة بما أطلقوا عليه اسم السياسة الواقعية أو « الضرورة الحيوية » التى تسمح للبعض بقهر الآخرين على الغاء ضرورة حياتهم ، وقد نجم عن ذلك أن السياسة خلت من جوهرها الأخلاقى ثم هوت بين أيدى أولئك الذين لا يرمون الا الى النجاح المادى الفورى أوالى فوائد طائفة معينة ، أو الى تحقيق مطامع لا تقف عند حد ، فصارت جهازا مفزعا ، أو آلة ميكانيكية فارغة تلتهم كل ما تصل اليه أو يصل اليها ، وتصنع شقاء الأناس بمداومة لا تخمد ولا تكل .

هذا هو مجمل مظاهر السياسة الحديثة التى تعرف العدالة بأنها « حفظ التوازن الضرورى فى منطقة أو مناطق معينة من الكرة الأرضية » . ولطالما تحدث الساسة عن حفظ التوازن فى أوربا . والآن هم يرددون فى كل يوم كلمة « حفظ التوازن فى منطقة الشرق الأوسط » دون أى التفات الى شقاء بعض الشعوب الصغيرة أو الى انسحاقها فى سبيل ذلك التوازن الذى لا يخرج عن كونه ضروريا لقوى الاستعمار .

وأيا ما كان ، فان هذه القطيعة التى انتهى اليها العالم الحديث بين السياسة والأخلاق . قد نشأت فى مجموعها من ضعف العاطفة الدينية وانتصار الوضعية المادية التى أولى نتائجها

تقسية القلوب ، ولكن هذا الخطر الداهم يجب أن يكون بينه وبين الأمم الاسلامية بون شاسع بشرط أن تتحد فيما بينها ، وتكون قيادتها في أيدي زعماء مؤمنين ذوي كفايات ممتازة ، ووعي متيقظ وايثار فدائي ، وذلك لأن الاتحاد مع حسن القيادة ، يمنح الشعوب قوة تقيها من أن تكون ضحايا الطغيان والجور ، ولكن هذه القوة الواقية لا تخلق ألبتة من الأمم الاسلامية جلادين ولا ظالمين لأن مبادىء الاسلام تربط ربطا محكما بين الأخلاق والسياسة لأنها تأمر معتنقيها باستعمال العدالة مع الأعداء والأصدقاء بدرجة واحدة ، ولا تسمح بالظلم الفردي أو الجماعي تحت عنوان أي مسوغ ، ولا في ظل أي ظروف مهما كان ، ومن أي كان ، وضد أي كان .

« انه لا يحب الظالمين » . « ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » (سورة الفرقان آية ١٩) « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (سورة النساء آية ١٣٥) من هذه العدالة التي بلغت في الاسلام أقصى حدود الشدة والعناية ، يتبين جليا أن حقوق الغير لها في هذا الدين الجليل الخالد قداسة خاصة الى حد دفع فريقا من الأجانب الى القول بأن هذه الحقوق توشك أن تكون هي المبدأ الثاني الذي نادى به الاسلام بعد التوحيد . ويذكر هذا الفريق للتدليل على عناية الاسلام الفائقة برعاية حقوق الغير تلك العبارة الاسلامية المأثورة وهي : ان

الظلم الذى يقع على الناس من أفراد أو من جماعات حتى لو كان على غير معرفة من المظلومين ، يبقى عبئا على فاعله أو فاعليه ويضلل ذلك في عنقه حتى يعترف أمام المظلوم ويرد اليه حقوقه كاملة ويظفر منه بابراء ذمته فى وضوح لا يعرف المواربة . ومعنى هذا فى صراحة أن الأسف والندم النظرين لا يجديان فتيلا .

والى جانب ذلك يدين الاسلام ـ فى جد لا يألف اللين ولا الانحناء ـ روح السيادة والاستعلاء والسيطرة والفساد بأوسع معانيه أى الفساد الأدبى والمادى والفوضى اذ يقول « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » • (سورة القصص آية ٨٣)

ومما هو موضع اعجاب فى المبادىء الاسلامية . ان سياسة العدوان والابتلاع التى تطلق عليها لغة العصر اسم « ضرورة الحياة » لم يفت القرآن أن يدينها ويندد بها ، وينهى أتباعه عن استعمالها فيقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (سورة البقرة آية ١٩٠) « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (سورة النساء آية ٩٠) . وهنا ينبغى أن نعلن سرورنا واغتباطنا ومباهاتنا بالسير على نهج القرآن فى هذا . ولم لا ؟ ألم يقل رئيس جمهوريتنا : « نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا » .

ولم يكتف الاسلام بمطالبة أتباعه بعدم الاعتداء على الآمنين المسالمين ، بل أمرهم بالمسارعة الى اغاثة المظلومين ، وأوجب عليهم المبادرة الى مناصرة المضطهدين ولو أدى ذلك الى الحرب في سبيلهم والقتال في صفوفهم بلا أى غرض من أغراض التوسع أو الاستعباد ، وانما بغضا للباطل والجور ، وحبا للحق والعدل ، « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » (سورة النساء آية ٧٥) . غير أن المروءة والرجولة والشهامة الحديثة قد شاءت للمحاربين المعاصرين ــ بدلا من حماية المستضعفين من الشيوخ والنساء والولدان ــ أن يلقوا عليهم القنابل وهم نائمون فى بيوتهم فيفزعوهم من نومهم ، ولو أن لديهم من تعاليم الاسلام مايرشدهم الى المعالم الباقية من الانسانية ، لحصروا الحروب فى جبهاتها وميادينها .

ومما يسترعى الانتباه فى هذا الصدد أن الفضائل التى يأمر بها الاسلام لا تتعلق بالجوانب المادية أو بالشؤون العملية من الحياة فحسب ، بل هى قبل كل شىء مسئولية معنوية مثالية رفيعة ، وهى مطلوبة من كل فرد وجماعة فى الأمة ، وهى لدى الحاكمين والمهيمنين أشد منهـا لدى المحكومين والمسيرين ، اذ أن هؤلاء الأخيرين مسئولون عن أنفسهم فحسب ، بينما أن الأولين مسئولون عن أنفسهم وعن غيرهم كما ينص الحديث الشريف بقوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » أى أن

رئيس الدولة مسئول عن الدولة كلها ، والوزير مسئول عن وزارته ، والأستاذ مسئول عن تلاميذه ، ورب الأسرة مسئول عن أسرته ، والزوجة مسئولة عن منزل زوجها ، والخدم مسئولون عن مصالح مخدوميهم . وبمناسبة الحديث عن مسئولية المهيمنين على الشئون العامة وفى مقدمتهم رؤساء الدول يجب أن نعلن رأى الاسلام فى احترام المعاهدات وفى الوفاء بالعهود ، ومصارحة الغادرين بغدرهم ، والخائنين بخيانتهم وذلك كله مناف لسياسة العصر الدولية المؤسسة على المخاتلة والمراوغة ، والتى تقر مناقضة المعاهدات قبل أن يجف مدادها ، وتعتبرها « قصاصات ورق » وهو كذلك متعارض مع السياسة الداخلية المكونة من الوعود المصنوعة « للاستهلاك المحلى » . ومعنى هذا فى وضوح أن رؤساء الدول يجب أن يكونوا شرفاء صرحاء شجعانا فى صراحتهم مع الصديق والعدو على قدم وساق ، ومع الداخليين والخارجيين على غرار واحد . وتلك السياسة هى التى يرسم القرآن خطوطها الرئيسية فيقول: « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين . » (سورة الانفال آية ٥٨) . « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . (سورة المائدة آية ١) . « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » (سورة النحل آية ٩٣) .

ونحن اذ تأملنا فى هذه السياسة الداخلية والخارجية التى رسم لنا الاسلام هياكلها الرئيسية ألفيناها ــ ولله الحمد أولا

وأخيرا ــ تطبق الآن فى جمهوريتنا تطبيقا يسير نحو الكمال بخطوات واسعة ، اذ أن الرئيس (جمال عبد الناصر) عندما يخطب فى جماهير الشعب بشأن أى امر من الأمور الداخلية « لا يمضغ الكلمات » كما يقول الفرنسيون أى هو يصارحها بأسوأ الحالات وينبئها بتفاصيل العجز والنقص فى الانتاج والزيادة فى الاستهلاك ، وكذلك بازاء السياسة الخارجية هو يعلن على رؤوس الأشهاد ، وفى محطات الاذاعة (والتليفزيون) أن الدولة الفلانية من العرب قد خرجت على الاجماع ومرقت عن الوطنية ، أو أن دولة كذا أو كذا تريد أن تملى علينا شروطها ونحن نصارحها بأننا لا نقبل شروط أحد ولا نريد أن نخضع لأية قوة كانت فلتحطم هذه الدول رؤوسها على الصخور وأننا سننتصر حتما لأننا مؤمنون بمبادئنا عاملون بايماننا . »

اجمال علائق الحكام بالمحكومين :

(١) واجب رئيس الدولة ــ يجب أن يترسم رئيس الدولة خطى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يستضىء بنبراس ماأمره الله به من سلوك رفيع نحو الأمة . « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » (آية ١٥٩ من سورة آل عمران) .

(٢) واجب المرءوسين ــ هو الطاعة المنزهة عن كل غاية شخصية مالم يتحقق انحراف الحاكم عن الصراط السوى « يأيها

الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (آية ٥٩ من سورة النساء) .

فادا ثبت هذا الانحراف تحلل المحكومون من واجب الطاعة تماما « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » رواه أحمد فى مسنده.

(٣) يجب على المسلمين لجيرانهم الذين لم يحاولوا العدوان عليهم ولا الاضرار بهم أن يحسنوا مجاورتهم ، وأن يعاملوهم معاملتهم لأصدقائهم ، بل أن يتولوهم برعايتهم ، ولكن اذا حاولوا أن يضروهم فى دينهم أو فى وطنهم ، وجب عليهم أن يقابلوهم بمثل معاملتهم . « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (آيتى ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .) .

(٤) واجب تنفيذ المعاهدات السلمية بشرف وبلا لف ولا دوران « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » . (آية ٩٠ من سورة النساء).

(٥) ادانة رذائل التسلط والاستعلاء والفوضى والافساد والتدمير « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » (آية ٨٣ من سورة القصص) « واذا تولى سعى فى الأرض ليفسدفيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » (آية ٢٠٥ من سورة البقرة) .

الظَّواهِرُ الأخلاقيّة العظمى [1]

تمهيـــد :

ان ابسط الملاحظات تكشف لنا حقيقة الظاهرة الأخـلاقية بطريقة مباشرة . وهذه الحقيقة هى ملحوظة فى نفوسنا قبل كل شىء مادمنا نعثر فى داخلنا على وجود قوة تأمرنابعض الأفعال التى تحكم بخيريتها ، وتنهانا عن البعض الآخر الذى تحـكم بشريته . وكذلك نلاحظ أن حقيقة هذه الظاهرة الأخلاقية تبدو بصورة موضوعية فى أخلاق البيئة الاجتماعية التى نلاحظ فيها وجود فكرة العدالة والمسئولية ، وأنها هى التى تدفع الى العمل بقوة ضد الفجور والظلم والغدر وما الى ذلك .

وكل هذه الظواهر تتمثل فى طوابع مثالية تميزها فى وصوح عن الظواهر الطبيعية التى تجعل الملاحظة منها موضوعا للعلم

---

(١) الظواهر جمع ظاهرة ؛ وهى الواقعة الثابتة المنبثقة من ناموس مستقر، وليست جمعا للظاهر المضاد .

ولقوانينه . واذن فالمشكلة الأخلاقية فى مجموعها هى محاولة فهم « الخلقية » عن طريق دراسة هذه الظواهر الأخلافية ، ثم ـ بواسطة التأمل ـ الى المبادىءالعامة للأفعال الانسانية . واذن فدراستنا الأولى هنا ستتجه الى تلك الظواهر الأخلاقية العظمى التى اتفق الجميع على وجودها ، والتى هى بالضبط تؤلف الأساس الجوهرى للاخلاق الاسلامية أى الضمير والالتزام الخلقى أو الواجب ، والمسئولية والجزاء . واليك نبذة عن كل واحدة من هده الظواهر .

الضمير الخلقى :

الضمير الخلقى هو حال للنفس تحكم بوساطتها على الخير والشر من الأعمال والنيات وهو القاضى المسموع الحكم ، ولأنه يستطيع أن يتعدى نفوسنا الى نفوس غيرنا ، فكما أنه يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر قبل العمل ، ويستريح للفضيلة . ويؤنب على الرذيله بعد الوقوع ، كذلك يستطيع أن يحترم الغير لفضيلته ، ويحتقره لرذيلته دون أن يشعر ذلك الغير بهذا الحكم الذى أصدره له أو عليه فى الخفاء ، نستطيع اذن أن نقسم مهمة الضمير الخلقى الى قسمين : قسم ايجابى ، وهو قبل وقوع الفعل من الانسان ، والقسم الآخر عاطفى ، ولا يظهر أثره الا بعد الوقوع ، فأما القسم الأول فيشتمل على دورين ، احدهما تميز الخير من الشر ، وايضاح الفرق بينهما ، وثانيهما استمرار المناداة بنهج سبيل الأول ، والبعد عن الثانى ، والحذر من الوقوع

فيه ، وأما القسم العاطفي الذى هو بعد وقوع العمل فهو الى السلب أقرب منه الى الايجاب ، لأنه لا يحتوى الا على انفعالات عاطفية مثل : الاستراحة والغبطة بعد عمل الخير ، والتأنيب والتوبيخ بعد عمل الشر ، وهذه الأحاسيس ، وان كانت سلبية الا أن لها فى كثير من الأحيان آثارا ايجابية بارزة . فهى التى تحمل المذنب على الاعتراف بجريمته ولو لم تحم حوله شكوك الاتهام ، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم هذا العذاب الداخلى الذى هو أسرع الى أكل ذبالة الفؤاد من نار السموم ، وهذا التأنيب هو الذى يدفع الآثمين الى الندم والتوبة .

هناك فرق آخر بين الضميرين : النفسى والخلقى يجب الاعتناء به وهو أن الضمير النفسى مستمر العمل لأنه يتأثر بكل احساسات الحياة وهى لا تنقطع وأما الضمير الخلقى فهو لا ينحرك للعمل الا حين يوجد الحكم بالخيرية أو الشرية على عمل الانسان، أو على نيته المطلقة ؛ فهو لهذا يعمل حينا ويقف حينا آخر .)

أرومة الضمير الخلقى :

من الموقن به أن التمييز بين الخير والشر أو الحسن والقبح ــ قبل أن تكون موضوعا للوحى القرآنى أو للقانون الاسلامى ــ كان الهاما باطنيا منقوشا فى صفحة النفس البشرية. وبعبارة أكثر وضوحا : ان الشعور بالفرق بين الخير والشر ، والعدل والظلم ؛ كان من أثر النفخة الالهية الأولى فى الكيان الانسانى منذ اللحظة الأولى التى صار فيها بشرا سويا . ومعنى

هذا فى بساطة ويسر أن هذه القوة المميزة وهى لدى أطفال المسلمين وغير المسلمين على السواء . غاية ما فى الأمر أن الوحى الاسلامى قد أوضحها وحددها وشرعها وقيمها ونماها ، فنحن اذا نظرنا فى القرآن نظـرة متأملة ألفينا فيه الآيات القـاطعة بسابقية أرومة هذه القوة الأخلاقية المميزة الى كيان الانسان قبل أن يتلقى الوحى ، بل قبل أن يميز معناه . « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها .» (الآيات من ٧ الى ١٠ من سورة الشمس) .

ومعنى هذه الآيات أن الله قد منح النفس البشرية فهم معينى الخير والشر ، أو ملـكة تمييز كل منهما عن الآخـر سـاعة تسويتها بدليل تعبيره جل شأنه بالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب الفورى بلا امهال .

وكذلك اذا تأملنا فى الآيات الكريمة التى تحدد القوى التى منح الله الانسان اياها عندما خلقه ألفيناها تنص على أنه منحه فى الوقت ذاته المقدرة على تمييز الخير من الشر كما يقـدر على النطق والابصار ، أى قبل الايحاءات والتشريعات والاباحة والحظر « الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » (الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البلد) .« بل الانسان عـلى نفسه بصيرة » . (آية ١٤ من سورة القيامة)

ومدلول كل هذه الآيات فى صراحة هو أن الله قد وضع فى الجبلة البشرية عند تكوينها قوة دراكة تتعقل الخير والشر

أو الحسن والقبح، ومنح هذه القوة القدرة على الأمر والنهى الداخلين قبل الفعل ، والرضى أو السخط بعده ، والاستمرار على اللوم والتقريع بعد اقتراف الاثم والخطيئة . وهو لهـذا جعـل من نعوتها صفة ادامة اللوم حيث قال : « ولا أقسم بالنفس اللوامة». (آية ٢ من سورة القيامة) .

وهذه القوة الدراكة الكاشفة الآمرة الناهيـة الراضـية اللوامة من الداخل هى الضمير الأخلاقى .

الأدوار التى يمثلها الضمير :

ان أول دور يمثله الضـمير معنـا هو دور المستـكشف المميز بين الطريقين : المستقيم والملتوى كماقدمنافاذاأبرز نتيجة استكشافه انتقل الى الدور الثانى ، وهو دور الناصح الأمين، فاذا اتم مهمته ، ووقع العمل من الانسان بالفعل ، انتقـل الى مرتبة القاضى العادل ، ثم الى مرتبة السـلطة التنفيـذية التى تتولى توزيع درجات المكافأة والعقاب ، فتنعم بقسط وافر من الغبطة والسعادة على القائمين بالواجب والمتمسكين بالفضـيلة يحيل الدنيا فى نظرهم الى جنة وارفة الظلال ، دانية الثمار ، لا يرون فيها الا نورا وجمالا وغبطة وسعادة ، ويملا قلوبهم بالأمل والتفاؤل والميل الى الاستفادة من الخير ، وهكذا كل فضـيلة تتولد مما قبلها حتى تصبح أعمال الشخص سلسلة فضـائل لا تفصل حلقاتها رذيلة واحدة ، ولكن الانسان اذا اقترف رذيلة فان فكرة قاسية حادة تشتعل فى داخل نفسه كأنها شعلة من نار لا

تزال تأكل فؤاده حتى تقضى عليه قضاءها الأخير ، أو هى كما يقول أحد الأخلاقيين : أنها تجلس فى الليل الى جانب وسادته لتجعل نعاسه سلسلة اضطرابات ومفزعات ، فاذا استيقظ نولت تعذيبه بقسوة وبلا انقطاع ، وتتبعت خطواته حتى فى ساعات العمل الشاغل ، وفى لحظات التسلية والسرور ، وان مثلها كمثل العثة تمزق أجزاء الفؤاد بلا شفقة ولا رحمة ، وما ذلك الا لأن سلطة الضمير التى يفرضها على بنى الانسان واحدة وثابتة لا تتجزأ ولا تتغير ، ولا تخضع للظروف ولا تنحنى أمام ضرورات الحياة ، فاللغة التى ينطق بها الضمير حين يأمر بالخير وينهى عن الشر هى واحدة فى كل زمان ومكان ، ولدى جميع الأشخاص لا فرق فى ذلك بين السيد والمسود ، والغنى والفقير ، والشاب والشيخ ، والعالم والجاهل ، وانها لغة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا ابهام ، وانها لغة أمر قوية قاسية لا تعرف الرجاء ، ولا تألف الهوادة ولا اللين . ومنشأ هذه الوحدة فى السلطة واللغة والقوة هو أن الضمير ينطق بصوت الله ، ويتكلم بلغته ، ويعبر عن أوامره وناهيه ، ولو أنه يتكلم بصوت أحد المحدثين الفانين لاستطاع الانسان أن يسكنه كلما أثقل عليه الأوامر ، وضيق على شهواته الخناق . نعم اننا نستطيع أن نعصيه ، ولكننا لا نستطيع أن نسكت صوته ، ولا أن نقطع هتافاته المتواصلة ، انه صوت باطنى يلهمنا ما يجب أن نعمل ، وينذرنا بما ينبغى أن نتقى وتتجنب انه ليس شيئا آخر غير جزء من العدالة الالهية . انه لنور خالد ينبسط فوق أعمالنا فيكشفها لنا بوضوح وجلاء،

انه ليس الا شعاعا من النور الأعلى . ان الضمير لا يفسد ولا يضل ، وانما يتغلب عليه ضجيج الشهوات فيحول بين الانسان وسماع صوته ، فاذا خفت هذا الضجيج الشهوانى ، وهدأت ثورة الرغبات المادية ظهر هذا الصوت العلوى واضحا وان لم يكن قد صمت لحظة واحدة وانما كان السلطان لغيره فى اثناء هذه الصلصلة . ولكن قد يقول لنا قائل : اذا كان الضمير من عالم الخلود ، فكيف استطاعت الشهوة أن تغلبه على أمره ؟ونحن نجيب بأن مبدع الكون قد حدد اختصاص الضمير وقصر سلطته على الحكم والأمر والنهى والانذار واظهار الغبطة للطائعين وصب جامات السخط والتقريع على العاصين ولم يمنحه سلطة القضاء على كل شهوة ومحو كل رذيلة ، ولو أنه جلت حكمته فعل ذلك لقضى على نظام الكون الذى لا يمكن أن يكون على صورة أخرى غير التى هو عليها الآن .

وقصارى القول أن الضمير والسريرة شىء واحد لا يتعدد ولا يتغير ولا يكذب ولا يوسوس ولا يتردد ولا يشك ، لأنه من عالم الأبدية ، وأما ما نشعر به أحيانا من تردد وارتباك فمصدره هو نشوب حرب باطنية بين هذا الضمير الصادق الناصح المتثبت من رأيه واحدى القوتين الحيوانيتين : الشهوية والغضبية الموجودتين فى النفس البشرية ، وان ما نشاهده من ضلال فى أعمالنا وسقوط فى هوى الشر والرذيلة ، ما هو الا تغلب احدى هاتين القوتين على ذلك الصوت العلوى ، وليس

معنى هذا كما زعم فريق من السطحيين أن الانسان أثناء النضال الداخلى بين ضميره وشهواته يكون مرتديا ثوب السريرة الصادقة . واذا كانت الغلبة للقوة الشهوانية ، ارتدى ثوب السريرة الضالة ، فاذا تعلم أو تهذبت أخلاقه عاد فألقى بهذه الأخيرة جانبا وتدثر بغيرها ، ولو كان الأمر كذلك لكانت السرائر شيئا تافها لا يكلف المرء تغييرها الا عناء استبدال القفاز كما يقولون ، ولكن الواقع أن التردد والشك والهدى والضلال ليست الا حالات للنفس البشرية تعرض لها من تنازع القوى الثلاث التى تسيطر عليها وهى الناطقة والغضبية والشهوية وأيتها كانت لها الغلبة ، فهى صاحبة الحكم والسلطان .

ومما لا شك فيه أن تغلب القوة الغضبية أو القوة الشهوية يقتاد الانسان نحو الرغبات المادية التى تهوى به الى صف الكائنات الدنيا وتصم اذنى ارادته عن سماع صوت الضمير العلوى الذى لا يكف ولا ينقطع ، بينما أن تغلب القوةالناطقة النورانية التى هى مناط الصلة بينه وبين ربه يرشده الى الرفعة والسمو ، ويبغض اليه الضعة والدنس والخيانة والغدر والاضرار بالغير ، ويحبب الى نفسه المثل الأعلى ، ويدفعه فى قوة الى اللحوق به ، ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن تلك القوى الثلاث فى درجة واحدة من حيث التركيز فى النفس البشرية كلا ، اذ أن البارىء جل وعلا قد كرم الانسان تكريما لو سجد لله طول حياته شكرا عليه لما وفى له بجزء ضئيل منه ، وهو أنه

منحه نعمة الضمير الذى ينير له الطريق على طول الخط ، ويناديه فى كل لحظات حياته العملية ناصحا اياه باعتناق الفضائل ، والنفور من الرذائل ، وتلك نعمة كبرى لم يظفر بها غيره من الكائنات الحية ، لانه يريد دائما أن يعيده الى كنفه المكين وان يغمره بفضله العميم وقد عرضه فى الحياة لمحنة الشهوات ليكون له فضل التغلب عليها ، ومجهود التخلص منها والعودة الى العدول عنها بعد الكبوة فيها . وتلك هى المرتبة التى فضل الله بها النوع البشرى على عامة الملائكة الذين يرجع كل الفضل فى نقائهم الى فطرتهم لا الى ارادتهم وجهودهم . ولا ريب أن هذه منحة عظمى تستوجب الشكر الذى لاحد له . واول ما تتمثل فيه هذه النعمة هو سماع صوت الضمير الدائم الذى يدعوه الى الرفعة والسمو والشغف بالمثل الاعلى .ومما يسترعى الانتباه أن اختصاص الانسان ـ دون جميع الكائنات الارضية ـ بالاشتمال على السر الاعلى فى داخل كيانه يلفت نظر أحد المفكرين المحدثين فيقول :

« ان انفراد الانسان بهذا الشرف يدل على أن فى داخل نفسه عنصرا ساميا حكم عليه مبدع الكون بالسجن زمنا مافى دائرة الجسم الضيقة ولكنه أباح له حرية التغلب على هذا الكائن الحيوانى فجعله يميل دائما الى الرفعة التى لو انتهى الى آخر حلقة من حلقاتها ، لالتحق بأصله وهو العالم الأعلى فميل الانسان اذن الى المثل الاعلى فطرى فى نفسه الناطقة لايزال بصبو

اليه حتى يلتحق به فى حياته أو ينقضى عمره وهو فى طريق السير اليه . غير أن هذا المثل الاعلى يختلف باختلاف الظروف والاحوال . فمثلك الاعلى بينك وبين نفسك هو ان تكون خيرا. وبينك وبين الناس أن تكون غيريا مضحيا باحثا عن سعادة البيئة التى تعيش فيها ما استطعت الى ذلك سبيلا . وبينك وبين ربك أن تعرف له حقه وتقدر عليك فضله ، وتذعن لاوامره ونواهيه لا رغبة فى جنة ولا رهبة من نار ، ولكن لان خالقك يحب ان تكون كذلك .

أما بعد فاذا كانت قيمة الضمير وسلطانه ومكانته من النفس البشرية قد اتضحت هذا الاتضاح ، واذا كان قد ثبت أن المبتعدين عن الجرائم والآثام تحت سلطان الرهبة من القانون أقل كثيرا من المذعنين لأوامر الضمير ، لأن الأولين فى آمن من العقاب على الشرور الباطنية والرذائل الخفية وهى اضعاف الرذائل الظاهرية من جهة ؛ واذا كان الذين يرهبون القانون الوضعى وحده كالعبيد ، بل كالحيوانات لا يخيفهم الا السوط والعصا ، واذا كان الآخرون هم الذين يمثلون الانسانية الكاملة التى تعمل الفضيلة وتتجنب الرذيلة لذاتيهما ، أى حبا فى الأولى وبغضا فى الثانية من جهة أخرى ، واذا كنا نهدف الآن الى السمو بأمتنا الى المثل الأعلى من جهة ثالثة، فقد وجب علينا أن نعمل جهد طاقتنا فى ايقاظ الضمائر وتنقيتها من كل شر وسوء لنأمن من غوائل الغدر والخيانة ولنطمئن على تأدية الواجب فى أكمل معانيه .

الضمير والقانون الخلقى السماوى :

فى المحيط الأخلاقى ليست القواعـد النظرية العـامة ، ولا التحليلات المتعلقة بالحالات الخاصة ، مهما كثرت ، كافية لارشاد الارادات الانسانية وقيادة أعمالها ، وانما هو ذلك الدور الهام الذى تمثله فى حياتها تلك القوة التى تسمى بالضمير والتى هى أداة الوصل بين المطلق والنسبى ، والتى هى تهتف دائما بتلك الارادات البشرية أن تنفذ القانون الأبدى غير غافلة عن النقص المتأصل فى طبيعتها بسبب وجود المادة فى تكوينها • والى هذا المعنى رمى القرآن حين قال : « فاتقوا الله ما استطعتم » • (آية ١٦ من سورة التغابن) •

وليس معنى هذا أنه مسموح لكل فرد بأن يحدد سلوكه تبعا لاستعداده الخاص ، اذ لو كان الأمر كذلك ، لسـادت الفوضى وعم الاختلال ، وانما معناه أن القرآن — فى هذا الأمر بالطاعة المستطاعة — يتجه الى المؤمنين الذين تلقـوا قبل ذلك تعاليم ايجابية ، وأعدوا اعدادا واقعيا لتطبيق هذه التعاليم فى سلوكهم العملى • غير أن منزل الوحى فى قواعده العامة للامر والنهى يعلم أن هناك حالات خاصة تستلزم الاستثناء لتعـذر أو تعسر تنفيذ الأمروالنهى فيها ، فيكل جل شأنه التقدير فى هذهالحالات الى الضمير الانسانى رحمة منه بالضعفاء والمضطرين • وهنـا يتحقق واجب المؤمن الحقيقى فى الا يفعل الا ما يبدو له أنه هو الأمر الالهىبشرط ألا يدع أى مجهود فى الاستنارةوالاسترشاد فى ذلك الأمر « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به » • (آية ٥

من سورة الأحـزاب) • « استفت قلبك • واستفت نفسك • البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك » (رواه أحمد فى مسنده) •

القانون الأخلاقى الاسلامى اذن هو مصبوغ فى قواعد عامة لكى يبذل الضمير الفردى جهود التنقيب عن الواجب ، وبالتالى لكى يقوم بدور ايجابى فى تطهير حياته واعلائها حتى لا يكون آلة لا فضل لها ولا تقييم لأفعالها • وهذه الطريقة التى اتبعها الاسلام هى أسمى الطرق وأوفقها الى المنطق القويم ، لأن أشد القواعد تحدد تصادقها دائما حالات غيبة التحـديد حين يراد تطبيقها على أفراد متباينين وفى معمعان الحياة اليومية المعقدة • ولكن حكمة التعقيد هنا هى التقليل بقدر الامكان من الأخطاء البشرية ودفع الضمير الفردى الى تعقب حالاته الخاصة ،ومتابعة التنقيب عن واجبه • وقد منح الله جل شأنه كلا منا الحرية فى أفعاله حسب طبيعته التى تتفاوت كمالا ونقصا بشرط أن يلاحظ فى كل خطوة من خطواته تلك القواعد الثابتة •

أما القيم الأخلاقية فى هذه الأفعال كلها ، فان الاسلام حددها وجعل لها درجات معينة حسب النيات والجهود كما سنراه فيما بعد •

وقصارى القول فى هذا الصدد أننا فى الاسلام ، تتلقى عن الوحى ذلك القانون الأخلاقى المثالى الكامل الواضح الذى ألقى الله جل وعلا من قبل بعناصرها الاساسية فى الضمير الانسـانى

وقت أن خلق النفس وسواها « فألهمها فجورها وتقواها » أى عرفها معنى كل منهما وأنذرها بأنه « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

ومن ثم فان المؤمن يعقل — عن طريق الحاسة الباطنية — أن ما يأمر به الوحي هو عين ما كان ينادى به الضمير قبل أن يتعقل الوحي ويشعر بأن مصدره واحد ، وبأنه ملزم بوجوب تحقيق هذا المثل الخلقى الأعلى الذى اختلفت بعض الفرق الاسلامية فى ينبوعه الأساسى ، فذهبت احداها الى أنه الشرع وزعمت الاخرى أنه العقل وهو — على الحقيقة التى لا مراء فيها — خلاف لفظى أو جدال بيزنطى لا أساس له ، بل ليس له أى مسوغ منطقى لأن المنشأ واحد لو تأملوا فى القرآن .

وعلى هذا الأساس تكون « الخلقية » الاسلامية قد أنزلت الانسان منزلته الحقيقية التى تلتئم معه اتم التئام ، فهى ليست تشييدا بشريا كما يزعم السطحيون القشوريون من علماء الاجتماع ، لأنها لو كانت كذلك ، لما التقينا فيها بهذا الكمال والانسجام اللذين يتعديان كل امكانيات الانسانية وطاقاتها . وهى ليست كذلك خضوعا تاما ، وانما هى « خلقية » كائن حر يرتضى باختياره قانونا رفيعا يشعر بأن مبادئه العظمى تحيا فى داخل نفسه ، فهو اذ يسير فى حياته العملية على مقتضى أوامره، يكون كأنه يتشرب هذا القانون ويمتصه ويطبقه على حالاته

الخاصـــة تطبيقا لا تتطاول الى عشر معشـــاره منزلة القـــوانين الوضعية •

ومما تمتاز به القوانين السماوية على الوضعية أنها قادرة على التوفيق التام بين الروحية ، وواقعية الطبيعة البشرية • ويمتـــاز القانون الاسلامى على بقية قوانين الأديان الأخر بأنه يضمن هذا التوفيق على أتم ما يكون الشمول والكمال •

الالتزام الخلقي أو الواجب

ان العاطفة التى تشعر الانسان بأنه ملزم باطاعة ضميره ، والاستيقان الباطنى بوجوب هذه الطاعة والشعور بأن ذلك الصوت أقوى من صوت الأنانية والنفعية . كل هذه المشاعر تؤلف ما يدعى بالالتزام الخلقى الذى يفرض عليه وجوب الاذعان للقانون الذى يسليه عليه ضميره ويهتف به أن يعمل الخير ، وأن يتجنب الشر فى جميع الظروف والأحوال .ومعنى هذا أن الالتزام الأخلاقى كله داخلى ، وأنه لا يختلط بالاكراه الاجتماعى الناشىء عن القوانين الوضعية . وهو يتضمن حرية الاختيار : وذلك لأن المرء يستطيع عمليا أن يكون أنانيا ، وأن يكذب ويخدع ويسرق ، ولكنه يشعر بالالتزام الباطنى بألا يفعل ذلك أى أن ضميره هو الذى يحظره عليه ، وليس هو العقاب البشرى المقرر بالقانون الوضعى

وعلى هذا النحو يكون الالتزام الخلقى الحر هو الأساس الأول لكل « خلقية » ، والا فهل يمكن التحدث عن المسئولية اذا لم يكن الاحترام للقانون واجبا علينا وجوبا قاطعا • واذا لم يكن لدينا تمام الحرية فى اختيار هذا الاحترام • ومن ثم فان كل الأخلاق الدينية المنبثقة من الوحى تنص على أن واجب المؤمن هو الانحناء أمام الالتزام الخلقى ، وما ذلك الا لأن مبادىء هذا الالتزام صادرة عن الله •

أما الأخلاقيون من غير المؤمنين فانهم يعتقدون أنهم سيجدون فى نور العقل وحده المسوغات الكافية لاطاعة الضمير • وهكذا آمن « كانت » بأنه استكشف طبيعة « الخلقية » وقوانينها • وفى الحق أنه كان خير من عرفوا كيف يستغلون فكرة « الواجب » ويصوغونها فى عبارة بقيت شهيرة ، وهى قوله : لا توجد « خلقية » الا حين يعمل المرء بدافع « الواجب » أى بوساطة الاحترام النقى للقانون الأخلاقى الذى وجد فى داخلنا قبل كل تجربة • وذلك هو « الواجب » الذى ينبغى تحقيقه دون اختلاط بأية منفعة أو عاطفة • غير أن النقاد الأدقاء الذين تناولوا منتجات « كانت » قد أجمعوا على أنه لم يزد على أن أسس أخلاقه على فكرة الألوهية ، وان « واجبه المطلق » لا يمكن أن يأتى الا من الله ، وان احترامه للقانون الأخلاقى الذى هو المسوغ الشرعى الوحيد ليس سوى صورة أمينة لاحترام المشرع السماوى كما نراه فى الأخلاق الدينية سواء بسواء • وكما سنرى ذلك فيما بعد •

قلنا آنفا ان الضمير الخلقى الذى يأمر بالخير وينهى عن الشر مسلم به من الجميع. ولكن الذين لا يؤمنون بالوحى قد أرادوا الاكتفاء بفكرة الضمير الشخصى . غير أنهم لم يلبثوا أن اصطدموا بكل العقبات التى تنشأ من الأخلاق التطبيقية ، لأنه من المستحيل اقرار قانون عملى يمكن أن ينطبق على جميع أفراد النوع البشرى وفى كل الأزمنة والأمكنة بصور متساوية .

وما يأتى هذه العقبات هو أن ذلك النور الفطرى مغلف بالميول الشخصية وقد أصابته الموروثات والعادات بنوع من الغموض ، فاتخذ سبلا مختلفة واتجه اتجاهات متباينة بتباين الحقب والأصقاع والظروف والأحوال والأمزجة بحيث يكون الضمير معرضا لعواصف الحياة وزوابعها التى تجعله ينحرف عن صراطه السوى الى حد أن يتخلى عن مهمته الأساسية فلا يبقى لديه من فطرته الأولى سوى « الحقائق الأخلاقية » العامة التى بقى بنو الانسان مجمعين على وجودها والتى أشرنا اليها فى فصل مضى .

أما اليقينيات الأخلاقية النظرية فانها تتخاذل بدافع تلك العوامل الطارئة التى أشرنا اليها آنفا ، والتى هى قادرة على زحزحة الانسان عن موقفه الفطرى اذا وكل الى نفسه ولم يأخذ الوحى بيده فيتردد ويضطرب ويلتجىء الى العرف والعادات ، وهى بالقياس الى الضمير افلاس محقق . وهنا ينم عن أنه غير كاف لابانة الحق من الباطل ، والخير من الشر . ومن آيات ذلك

ما نشاهده من تخبط الشعوب التى زالت منها تعاليم الوحى فى هذا الشأن أو انحرفت أو تشوهت عن طريق الجهل أو الأهواء فجعلت تنزل الرفعة فى منزلة الضعة . ولا تفرق بين الفضيلة والرذيلة . ويرى ذلك منها علماء الاجتماع السطحيون فيحسبون أن هذا الخلط طبيعى فى تلك الشعوب . وان ذلك التفريق بين الخير والشر هو الطارىء الذى خلقته المجتمعات لصيانة أنظمتها ويرتبون على هذ الرأى الفج الخاطىء أنه لا يوجد فى الفطرة الانسانية خير ولا شر ، وان جميع القيم الاخلاقية أوهام لا حقائق وان كل القواعد التى وضعها الاخلاقيون ليست سوى أخيلة من جانبهم أو مصطلحات وضعتها مجتمعاتهم حسب ظروفها ودرجاتها فى الارتقاء .

ولا ريب أن أقل ما يقال فى هذا الرأى الخاطىء الضال المضل أنه عكس الآية وجعل النظريات تسير على رؤوسها لا على أقدامها فبدلا من أن يقرر — كما هى الحقيقة الناصعة — أن القيم الأخلاقية والمبادىء الفطرية . والقواعد التشريعية كانت هى الأصول الحقيقية التى الهم البارى جلت حكمته جميع النفوس اياها قبل عالم الأشباح ، ثم أنزل الايحاءات المتتابعة ليأخذ بأيدى البشر كلما انحرفوا وضلوا عن سواء السبيل . وقد شاء لهم الاختلاف والتفرق والتباين ليمتاز الحق عن الباطل ، ويتبين الخير من الشر وفى أثناء هذا التفرق اقتضت طبائع الأشياء أن يهتدى البعض، وينحرف البعض الآخر فى أتم ما تكون حرية الاختيار فينطبق

عليهم قول الحكيم العليم : « فريق فى الجنة وفريق فىالسعير» « ولكن ما يعقلها الا العالمون » •

وأيا ما كان ، فاننا نعود الى موقف الضمير حين يطغى عليه العرف ، وتطبق عليه العادات والموروثات من كل جانبفنتساءل أين النور الكاشف الذى يرشد الانسان ويهديه الى الحق . ويضمن له صحة الحكم ، واستقامة السير • ونجيب على ذلك بأنه الوحى أو الحكم الأحد الذى ترضى حكومته • واذن فكلما رانت ظلمات العرف والعادات والأهواء على الضمير الفطرى ، وأقامت بينه وبين الحقوالخير حواجز صفيقة سترت عنه نورهما فأعلن حيرته وعجزه عن معرفة سبيل الهدى . وجب أن يهرع المؤمن الى كنف الوحى الذى لا يعلم الحق فى هذه المواقف الا هو ، والذى لا يمكن أن يضل من التجأ اليه مخلصا . ولا أن يخذله أو أن يحرمه حمايته وانقاذه ، بل هو يكشف له عما ينفعه وما يضره ، ويرشده الى اتباع الأول واجتناب الثانى ولو كان قد غرق فى الجهل حين حالت الغواشى العارضة بينه وبين النور الفطرى فأصبح لا يميز بين النفع والضر ، فاقتنع بنقيضالحقيقة وأحب ما يضره ، ونفر مما ينفعه « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (آية ٢١٦ من سورة البقرة)

القانون الالهى العملى اذن هو وحده القادر أتم القدرة على ادامة تأثير القانون الاخلاقى الفطرى واكمال ما ينقص منهخلال

الدهور وعبر الأصـقاع • وليس معنى هـذا أنه يوجد نبعان مختلفان للالتزام الخلقى كلا ، وانما هما نور على نور ، مبدؤهما كليهما هـو منشأ كل نور ، اذ أن النـور الذى يأتى الينا من الوحى ، لا يمكن أن يحـدث أثره فينا الا عن طريق الضـمير الفردى الذى هو مقر الايمان بالوحى ، ومبعث العمل على تنفيذ أوامره بعد الاسترشاد الباطنى بنور العقل والتأمل فيما أتى به ذلك الوحى من آيات بينات : « كتـاب أنزلناه اليك مبـارك ليـدبروا آياته وليتـذكر أولـو الألباب . « آية ٢٩ من سورة ص) •

ومجمل هذا كله أن الله قد وضع فى داخـل النفس البشرية نورا جزئيا لكشف الحق مادامت الطرق أمامها معبدة مستقيمة ، وهو الضمير ولكنه غير كاف لتقديم القانون العملى الشـامل بقواعده العامة ، وأوامره ونواهيه الواضحة ، فشاءت الحكمة الالهية أن تنزل الوحى على من تختاره من البشر بعد أن أعدت الجميع اعدادا كاملا لتلقى هذا الوحى من الرسول المختار ،لتتم الهداية ويكمل الارشاد • ولو أن الله جل جلاله ترك الناس بلا وحى بعد أن انحرفوا عن الطريق القويم وأصبحوا لا يصغون الى هتاف الضمير الفطرى لضلوا بعد الهدى السابق على عالم الأشباح وكانوا أدوات لاضلال غيرهم ، ولكن الله رءوف رحيم « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون ان الله بكل شىء عليم » • (آية ١١ من سورة التوبة) •

« قل ان ضللت فانما أضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى الى ربى انه سميع قريب » • (آية ٥٠ من سورة سبأ) •

المبادىء الأساسية للالتزام الخلقى :

ان القانون الأخلاقى العملى الذى أتى به الوحى هو القانون المثالى بأدق معانى هذه الـكلمة وأعمقها ، لأنه ـــ فى جميـع نظراته الى الانسان والحياة ـــ يمثل الحق والخير الأسمى فى ذاته ، أو من حيث هو خير ومتفق مع العدل الباطنى والظاهرى قبل كل اعتبار • ومن ثم ، ومن هذه الحيثية على الأخص ،كان ـــ بأمـر المشرع وارادته ـــ الزاميا « ان الله يأمـر بالعـدل والاحسان وايناء دى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (آية ٩٠ من سورة النحل) • «والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ان اللههو السميع البصير » (آية ٢٠ من سورة غافر) • « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (آية ١ من سـورة ابراهيم) « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (رواه مالك فى موطئه) •

الواجب ومنزلته فى الأخلاق الاسلامية :

يأمر الله المؤمنين بالخضوع المخلص والطاعة الصادقة للقانون الأخلاقى الذى يعبر عنه المشرع بأنه هو الطابـع المميز للمؤمن التقى ، بل هو يجعـل من الشرائط الأساسـية التى تتحقق فى

المسلم قبل كل شيء أن تتجه أفكاره وميوله نحو الاذعان للقانون الأخلاقي بدافع احترامه للاوامر الالهية دون تطلع منه الى منفعة خاصة أو فائدة شخصية ، أي أن يقطع بين هذه الطاعة ، وجميع النتائج التي يمكن أن تترتب عليها . وقد وضع الأخلاقيون المسلمون هذا الباعث على رأس سلسلة البواعث الدافعة الى الخير والفضيلة ، والتي تحدد السلوك الانساني ، والتي تتفاوت مراتبها ودرجاتها بتفاوت غاياتها وأهدافها . فاذا فعل المرء الخير ، لأن الله يحب ذلك منه ، وترك الشر لأن الله يكرهه فحسب ، كانت منزلته أسمى منازل المؤمنين « وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » (الآيات من ١٧ الى ٢٠ من سورة الليل) . « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » (رواه ابن قتيبة) .

غير أنه لابد أن تتوج هذه الطاعة التي يقصد منها ابتغاء مرضاة الله ، عقيدة راسخة بأنه سبحانه وتعالى حقيق بكل طاعة وتقوى وحب وعرفان بالجميل « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » (آية ٥٦ من سورة المدثر) .

وبعد هذه المرتبة التي لا تؤدى فيها الأعمال الا ابتغاء مرضاة الخالق المنعم ، تأتي درجة الأعمال التي يأمر بها الوحي لهدف قيمي قد تدق نتائجه على الادراك البشري المحدود فيبين له الشارع صوابها مشيرا الى شيء من تلك النتائج الواقعية التي

من شأنها اصلاح الفرد والمجتمع دون أن تنزل الى دركة النفعية المبتذلة ، كأن يكون المرء فى نزاع بينه وبين زوجه ، أو بينه وبين أحد آخر ، وأن يكون فى الاتفاق مع الطرف الآخر غبن له أو تضحية منه ، فيأمره المشرع السماوى بتحمل هذا الغبن وتحمل التضحية فى سبيل السلام والوئام « والصلح خير » (آية ١٢٨ من سورة النساء) .

طوابع الالتزام الخلقى وشروطه :

ان الالتزام الخلقى فى الاسلام له كل طوابع القواعد العامة وشرائطها ، وهى أن تكون شاملة ثابتة مستقرة لا تخضع للعوامل المختلفة ، ولا للظروف المتباينة . ولا للأزمان المتعاقبة ، ولا لعادات الأصقاع المتعارضة ، ولا لمشارب الأجناس المتفاوتة ،لأن كل هذه الاضطرابات والتغييرات من خصائص الأرض لا من ميزات السماء ، ولأن شمول الاسلام وعموميته ، بل كونيته وثباته هى الطوابع الأساسية التى ضمنت له صلاحيته للكون كله ما بقيت على هذه الأرض حياة ومبادىء والتزامات « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (آية ١٥٨ من سورة الاعراف) . « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (آية ١ من سورة الفرقان) .

أما شروط الالتزام الخلقى الأساسية فمن أبرزها شرط امكان التنفيذ بلا تعذر ولا تعسر ولا تحرج ، أى أنه لا يتجه الى المرء الا فى حدود وسائله الممكنة ، بل الميسورة له دون أدنى ضرر « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها مااكتسبت» (آية ٢٨٦ من سورة البقرة) .

ومعنى هذا أن كل مالا تستطيع قوة الفرد أن تتغلب عليه ، أولا يقوى اطار امكانياته على الاتساع له هو مبعد بأمر هــذا القانون الخلقى السماوى ، لأنه يحظر على الانسان ما يستنفد قــواه أو يرهقها « يريد الله بكم اليسر ولايريد بــكم العسر » (آية ١٨٥ من سورة البقرة) « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (آية ٢٨ من سورة النساء) . « ان هــذا الدين متين فأوغل فيه برفق . ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » . (رواه أحمد فى مسنده عن أنس) .

غير أن الشارع قد علم أن هناك أفرادا قد يزعمون أنه ليس فى وسعهم أن يفعلوا كذا أو كذا ،وهم قادرون على فعلهفأنذرهم بأنه سبحانه وتعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . (آية ١٩ من سورة غافر) « ويعلم ما فى البر والبحر وماتسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمــات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » . (آية ٥٩ من سورة الأنعام) .

ولقد علم البارى جل جلاله أن الأهواء هى التى تضل الأفراد وتجعلهم يتظاهرون بأنهم عاجزون عن القيام بالالتزام الخلقى . ولذا أمرهم بألا يتبعوا هذه الأهواء التى لها فى سلوكهم أسوأ الآثار ، ونهاهم فى عدة مواضع من القرآن عن اتباعها أو الانحراف معها الى سبل الشر والعصيان « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (آية ٢٦ من سورة ص) . « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » . (آية ٥٠ من سورة القصص) .

المسئولية والجزاء

من هاتين الظاهرتين الأخلاقيتين اللتين أشرنا اليهما آنفا ،وهما ظاهرتا الضمير والالتزام الخلقى ، تنبثق بطريقة طبيعية ، ظاهرة ثالثة ، وهى المسئولية الخلقية والجزاء المترتب عليها .

والذى نعنيه هنا بعبارة المسئولية هو المظهر الذاتى أى العاطفة التى يشعر بها المرء فى داخل ضميره ، وهى أنه حر فى أن يطيع أو أن يعصى القانون الأخلاقى . وبعد اختيار الفعل ووقوعه منه ، يحس بمسئوليةعمله ، وبأنه يجب أن يحتمل نتائجه والأمر هنا لايتعلق بالمسئولية الموضعية التى تأتى من جانب سلطة القانون الخارجى أو من الرأى العام .

وهذه العاطفة الداخلية البحتة هى صفة مرتبطة بشخصية الانسان عن طريق طبيعته العاقلة وهى ملتصقة التصاقا تاما بفكرة الحرية التى مؤداها أن الفرد يشعر دائما بأنه حر فى اختيار نوع

الأعمال التى يقوم بها من الحيثية الخلقية ، وبأنه مسئول عن كل عمل يصدر منه ، لأن العمل ، من حيث هــو ، يتضمن الالتزام بفعل الخير سواء أكان الفاعل قــد احترم هــذا الالتزام أم لم يحترمه . والفرق فى هذا الموقف بين المؤمن هو أن الثانى يحس بجدية الالتزام وخطورة المسئولية أمام ضميره ليس الا . بينما أن الأول يشعر ــ عن طريق ضميره قبل كل شىء ــ بأنه مسئول أمام واضع القانون الخلقى .

وينبغى أن نوضح هنا أن مسئولية المسلم أمام واضع القانون لخلقى السماوى ، ليست مسئولية الرهبة من العقاب ، أوالرغبة فى الثواب وانما هى - قبــل كل شىء ، مســئولية أدبية تتعلق بالوفاء بالعهد السابق على عالم الأشباح ، وهو الارتباط بالميثاق « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين » (آية ٨ من سورة الحديد) . « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور » . (آية ٧ من سورة المائدة) . « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهــورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هــذا غافلين » . (آية ١٧٢ من سورة الأعراف) .

وممسا يسترعى الانتباه هنا أن الاســلام قد تفرد بين جميــع الأديان بالاضافة فى تنبيه القلوب والعقول الى قيمة ذلك الميثاق

الأول ، وابانة خطورته • ولما كان ذلك الميثاق بمثابة تعاقد بين بنى الانسان وربهم ، فان المعتـدى عليه يهـوى من منزلته الى صفوف البهيمية لأنه يخون عهد خالقه ويسىء الى نفسـه والى الآخرين الذين يضرهم عمليا ، والذين يتخذونه قدوة الى الشر والفساد • « يا أيهاالذين آمنوا لا تخونوا الله والرسولوتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » • (آية ٢٧ من سورة الأنفال) •

وينبغى أن نتنبه الى أن للرسول هنا شخصيتين : أولاهما أنه هو الآتى بالوحى من لدن ربه جل وعلا • وثانيتهما أنه يمثـل المجتمع أو الأمة ، فنص القرآن على فـداحة خيانة الآثمين ذات الشقين له صلى الله عليه وسلم بعد خيانتهم لله ثم ثلث باساءتهم الى أنفسهم وهم يعلمون • وهذا كله يكشف لنا خطورة منزلة الوفاء لا بعهد الله وحده ، بل بعهود النـاس بعضهم لبعض فى الأخلاق الاسلامية•وليس هذا استنتاجا أو قياس حكم علىحكم، وانما نص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة على الوفاء بعهود الأفراد وجعلها فى المراتب الأولى من درجات المسلمين « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » • (آية ٣٤ من سورة الاسراء) « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (آية ١ من سورة المائدة) « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أئتمن خان » وفى رواية : « واذ عاهد غدر » رواه الترمـذى والنسائى عن أبى هريرة •

بيد أن المرء ليس مسئولا عن الوفاء بعهده ، أو مكلفا بتنفيذ وعده الا اذا كان ذلك متعلقا بعمل خير ، أو بابعاد شر . أماذا كان الأمر على غير ذلك ، فان القانون الأخلاقى السماوى يعفيه من الوفاء بالعهد ، بل يحظره عليه « من نذر لله أن يطيعه فليطعه، ومن نذر له أن يعصيه فلا يعصه » (رواه البخارى) . « ماكان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » (رواه البخارى) .

ومن طلائع الخير العام استتباب الأمن واستقرار النظام.وهما لا يتيسران الا باحترام القانون ، واطاعة القائمين على حفظه وتنفيذه من الحاكمين أوأولياء الأمور طاعة صادقة مخلصة فى السر قبل العلانية « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (آية ٥٩ من سورة النساء) .

ولكن اذا تحقق انحراف ولى الأمر عن جادة الصواب ، وثبت عمله لأهوائه وغاياته ، لا للامة ولا للصالح العام ، فقد انهدرت كرامته ، وهوتقيمته ، وتحلل الجميع من واجب طاعته «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (رواه أحمد فى المسند) .

شروط المسئولية الخلقية :

اذا كان غير المؤمن ليس مسئولا من الوجهة الأخلاقية الأمام ضميره الذى كثيرا ما نرى نتائجه العملية غير كافية عندما تكون كثرة الآثام قد رانت عليه وحالت بين الارادة وسماع صوته ، وجعلت نداءه صرخة فى واد ، ودعاءه نفخة فى رماد ، فينبغى أن

نعلم أن الأمر ليس كذلك بالنسبة الى المؤمن ، لأن مسـئوليته مزدوجة ، اذ أن مسئوليته أمام ضميره ، ترافق مسئوليته أمام ربه ، أو تجاه القانون السماوى الذى يضىء ضميره اذا أظلمته الظروف ، ويرشـده اذا تعرض للانحـراف • واليك نماذج من الشروط التى يمكن استخلاصها من نصوص الوحى ، والتى هى أقل ما يرضى العقل ، ويسحر القلب دون ارتياب ولا تردد •

١ — ان المسئولية فى الاسلام مبدأ فردى ، أولى مميزاته أنه يقصى جميع المسئوليات الجماعية بأوسع معانيها ، والوراثية بأدق دقائقها . وذلك بوضـح ما بين الاسلام والمسيحية من فروق عقيدية أساسية ، اذ أنه لا يقول مثلها بالخطيئة العنصرية ، ولا يقرها من قريب أو من بعيد ، فخطيئة آدم فى نظر الاسلام سهو شخصى عن تأدية واجبه نحو ربه • وندمه قد محـاها دون أن يحتمل المنحدرون من صلبه أية نتيجة من نتائجها « ثم اجتبـاه ربه فتاب عليه وهدى » (آية ١٢٢ من سورة طه) •

وفى القرآن عدد موفور من الآيات التى تلزم كل فرد بآثامه وخطاياه دون أن تتعداه الى غيره أيا كانت لحمة هذا الغير به « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه » . (آية ١١١ من سورة النساء) « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » . (آية ١٥ من سورة الاسراء) « وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . (آيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، من

سورة النجم) . « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلسون » . (آية ١٩ من سورةالأحقاف) « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . (آيتى ١٣ ، ١٤ من سورة الاسراء) .

غير أن هناك حالات تتضاعف فيها مسئولية الآثم الى حد الفداحة عندما يضل أفرادا أو جماعات بأن يوقعهم فى الآثام بالأمر ، أو بالنصيحة المغررة ، أو بالقدوة المغوية . « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » (آ ية ١٣ من سورة العنكبوت) « ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها الى يوم القيامة » (رواه مسلم) .

٢ — من الشروط التأسيسية للمسئولية الخلقية ، بل من شطورها الكيانية ، النية المحددة الواضحة فاذا أخطأ المرء فيما أتى من أعمال ، أو وقع منه العمل دون قصد ولا ارادة ، فلا تعتبر له قيمة خلقية . ولما كان للنية فى الأخلاق الاسلامية أهمية فائقة ، فاننا سنعود اليها فيما بعد بصورة أوسع مستنيرين فى التحدث عنها بنور الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة .

٣ — لا تتحقق المسئولية الخلقية فى الاسلام الا بعد الانباء والانذار عن طريق الوحى فى آيات محكمات .

حقا ان الضمير الفردى كان يجب أن يكفى وحده لتحقيق تلك المسئولية بأعمق معانيها كما أبنا ذلك فى وضوح حين عرضنا للأدوار التى يمثلها الضمير فى حياتنا ، ولكن ضعف الارادة البشرية وتعرضها للتأثيرات المختلفة ، وخضوعها على مر العصور للعقائد الزائفة ، والعادات المتضاربة ، كل ذلك يحول النور الفطرى أمام الضمير ظلاما ويخلط الحق بالباطل ، والخير بالشر ، ويخلق الحيرة والارتباك ، ويقضى على التفريق والتمييز الى حد يجعل الوحى أمرا ضروريا لاعادة البشر الى الطـريق القويم وهدايتهم الى الواجب الحقيقى قبل تحميلهم المسئولية « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (آية ١٥ من سـورة الاسراء) . « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (آية ١١٥ من سورة التوبة) .

ولقـد اقتضت حكمة الله جل جـلاله أن يكون الوحى الاسلامى عاما شـاملا ، بل كونيا حتى تتـلاشى أمـامه حجج المكابرين ، وتذوب اعتراضات المعاندين « لئلا يكون للنـاس على الله حجة بعد الرسل » (آية ١٦٥ من سورة النساء) .

هذا كله فيما يتعلق بالمسئولية الفردية ، أما المسـئولية الاجتماعية ، فان الاسلام كان بازائها رفيعا الى أبعد حدود الرفعـة ، فلم ينتظر تلك الجهود الفـكرية قديمها وحديثها ،

والمحاولات المتوالية التى جعلت تتخبط فى بطىء وتردد ، وظلت تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لم يفعل شيئا من ذلك ليتوصل الى تلك النتيجة الحاسمة التى تجزم فى جلاء بأن الشخص المسئول أمام ضميره ومجتمعه هو وحده الشخص البالغ المشتمل على جميع قواه العقلية وعلى حريته كاملة غير منقوصة ، وهى عين النتيجة التى توصلت اليها فى الحقبة الأخيرة جهود الشعوب التى بلغت فيها الأنظمة الحديثة أقصى آواج التقدم والارتقاء بعد أن كانت الى عهـد قريب تدين الأطفال والمجـانين ، بل الحيوانات ، وتعدهم مسئولين عما يقترفون من أضرار ضـد الأفراد والمجتمعات فى الوقت الذى كان الاسلام فيه قد وضع الأمور فى نصابها منذ استقرت مبادئه بين الأجناس البشرية ، وأنارت تعاليمه مشارق الأرض ومغاربها .

الجزاء الخلقى

رأينا أن الأخلاق الاسلامية توجب المسئولية الخلقية على الفرد أمام ضميره وأمام المجتمع الذى يعيش فيه . وينتج من هذا منطقيا وجود جزاءات خلقية يمكن فصلها عن الجـزاءات الدينية التى تعزى الى الله فى الحياة الأخرى ، وعن الجزاءات القانونية التى وضعها البشر ، ليصلوا عن طريقها الى احتـرام القوانين ، وبالتالى الى الاقلال من الجرائم والآثام .

ومما لا ريب فيه أن هذه الجزاءات الوضعية هى قبل كل شىء عاطفة فطرية تتطلبها من الأناسى فكرة العدالة التى تربط دائما فكرة العقاب بفكرة الظلم . ومن ثم فان الاخلاقيين فى جميع العصور قد عودونا على أن نستحضر فى تفكيراتنا جزاءات خلقية طبيعية لكل عمل لنتمثل بها الخلقية الكامنة فى نفوسنا

محوطة بكل احترام ، فهم يصورون لنا مثلا أن الصحة هي مكافأة للسلوك النظيف المعتدل ، بينما أن المرض هو عقاب على العهر والافراط فى الشهوات ، وأن الرغد يصحب العمل والنشاط ، كما أن الفقر يرافق الكسل والخمول .

غير أن هذه القواعد — وان كانت حقيقيـة فى بعض صورها — هى جزئية محدودة ، وليست شاملة لجميع الحالات، وبالتالى ليست كافية ولا مقنعة ، لأنها عاجزة عن تعليل الرذائل المتوجة بالنجاح ، والفضائل المصحوبة بالكوارث . ولهذا لم يعتبرها القرآن قاعدة عامة شـاملة يصـدق تطبيقها فى جميع الظروف والأحوال ، ولكنه فى أحيان قليلة يشير الى احتمال وقوعها وينبه المؤمنين الى الخطر الذى قد يلحقهم منهـا فى المواقف النـادرة التى قد تقـع فيهـا . والى جانب ذلك هو يتخذها موعظة ينفر بها من الرذائل مشيرا الى أن عدم لزومها أو تغيب ملازمتها للأفعال التى هى مترتبة عليها لا يفيد فسادها ، وأنها يكفى أن تتحقق فى بعض المواضع التى يعرف الانسـان تحديدها بالضبط فيكون ذلك الجهل حافزا له على التخوف من نتائجها ، وأن مجرد التخوف قد يبتعد به عن الرذيلة الجالبة لذلك الجزاء العملى كتلك الآية الشريفة التى تحذر من مغبة رذيلتى الشح والسفهوما يترتب على أخطرهما وهى رذيلة السفه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » : (آية ٢٩ من سورة الاسراء).

أما الجزاء الخلقى الآتى من قبل الضــمير الفردى ، وهو الشعور بالغبطة لدى فاعل الخير ، والاحساس بألم التأنيب والندم الذى يعقب فعل الشر فهو الجزاء الخلقي الحقيقى ، وهو من نوع رفيع يتميز عن العقوبات المادية بطابع الدوام والاستمرار ومع ذلك فان هذه الجزاءات الخلقية ، هى بعيدة كل البعد عن تحقيق ذلك التعادل المطلق بين الفضيلة والسعادة من جهة وبين الرذيلة والألم من جهة أخرى بالقدر الذى تتطلبه فكرة العدالة ، لأننا نشاهد أن كثيرا من الجرائم يقترف بين بنى الانسان دون أن يشعر مقترفوه بأدنى أثر للندم . ومرة أخرى نلاحظ عدم كفاية الضمير الفردى اذا وكل أمره الى ارشاداته الشخصــية وحدها .

واذا كان الأمر كذلك فان من الطبيعى ان يتجه المؤمن نحو القانون الالهى وجــزاءاته فيما بعد هذه الحيــاة ، اذ ان تلك الجزاءات هى وحدها التى ترضى فكرة العدالة وبالتالى نحن نرى ان الاسلام يجزم بأن الضمير الفردى هو الصوت الوحيد المعبر عن الأخلاق الفطرية . ولكنه لا يجد قوته ونوره الطبيعيين الا اذا كان موجها ومؤيدا بوساطة القانون الموحى . ومعنى هذا ان القانون الالهى — بعيدا عن أن يكون قد أتى ليحــل محــل الخلقية الفطرية — هو يغذيها بلا انقطاع . وأوامره هى على الدوام متفقة مع العقل والعدل . والنتيجة من هذا كله هى أن يقظة الضمير الفردى ومداومته على تأدية وظيفته لهما فى الاسلام أهمية جوهرية لأن الايمان المخلص لا وجود له بغيرهما .

ويجب أن نعلم أن هذه الجزاءات الباطنية ليست مكافآت أو عقوبات استحقها سلوكنا واهليتنا لها فحسب وانما هى مشـاعر معنوية يتزايد تقاؤها وقوتها بتزايد الايمـان وقـوة التلاؤم الباطنى الذى يشعر به المرء بين حكم ضميره وأوامر القـانون الالهى ، أى أنه بقدر ما تفرض عاطفة الالتزام الخلقى نفسها على المؤمن تتزايد قوة الندم على اقتراف الاثم أو على الضد من ذلك تتزايد لديه حالة السكينة النفسية والاتزان البـاطنى الناتجة من الاتساق بين ضميره والأخلاق المثالية الآتية عن طريق الوحى .

ومعنى هذا أن التطبيق العملى للفضائل ودوام المزاولة لأعمال الخير يحملان معهما الى المرء جزاء أخلاقيا حقيقيا ، أى يكسبانه الطهر والحكمة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (آية ١٠٣ من سورة التوبة) .

وليس هـذا فحسب ، بل همـا تنقلانه من الهلع والجـزع الطبيعيين فيه الى الشجاعة فى المحن وتسموان به الى رضاء الله عنه ومنحه اياه رحمته وحبه ، وبالتالى اسعاده فى الدنيا والآخرة واختصاصه اياه بالاستثناء من نقائص الجبلة الآتية له من تغلب الأهواء على ارادته بعد الميثاق الأول ، ثم عودته الى أوامر الوحى مما جعله جديرا بالحظوة الالهية الاستثنائية التى عدد القـرآن أسبابها التطبيقية العملية اذ قال : « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين

هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسـائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . ان عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ماملكت ايمانهم فانهم غير ملومين . فمـن ابتـغى وراء ذلك فأولئك هم العـادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمـون . والذين هم على صلاتهم يحافظون » (الآيات من ١٩ الى ٣٤ من سورة المعارج) .

بينما ان الاستمرار فى الرذائل يفسد الأخلاق ويدنسها : « ان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وان الرجـل ليصدق حتى يكون صديقا . وان الكذب يهدى الى الفجـور والفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (رواه البخارى) « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . (رواه البخارى) .

وكذلك ينتج عن المزاولة الدائمة لتطبيق الفضائل أنها تنير المؤمن وتجعله قادرا على ادراك الحقـائق ولو لم يتعمـق فى دراستها « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » (آ ية ٢٩ من سورة الأنفال) . أى يمنحكم ملكة تفرقون بها بين الحق والباطل .

بينما أن المعنين فى الاثم والرذيلة تسود قلوبهم أو تغطيها غشاوة من الظلام تحول بينهم وبين ادراك أقـل أنواع الحقائق

« بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (آ ية ١٤ من سورة المطففين) .

ومما هو جدير بالعناية هنا أن المبادىء الاسلامية قد عنيت بالتوبة عناية قوية لأهميتها فى حياة الفرد والمجتمع وآثارها فى اقلاع المرء عن الرذائل ، وعودته الى ارضاء ربه وضميره . وقد جعلت حكمة البارى تأنيب الضمير أساسا للندم ،وجعلت الندم أساسا للتوبة أو لنقله من الحالة النظرية الى الحالة العملية التى هى الطريق الى العفو والمغفرة . وليس على الباحث الا أن يتصفح كتاب « احياء علوم الدين » للامام الغزالى أو كتاب « معـارج السائرين الى رب العالمين » للامام الهروى الأنصارى فانه سيرى ما أفرده هذان الصوفيان العظيمان للتوبة من صفحات وصفحات عنيا فيها بتحليلها وشروطها وأوقات قبـولها ومواضع رفضها وما الى ذلك مما يصور قيمتها الحقيقية فى أخلاق الاسلام .

ولما كانت التوبة لا تقبل الا فى حالة الحياة ، ولما كان الانسان يجهل حدود أجله جهلا تاما ، فان الحكمة توجب عليه الاسراع بالتوبة قبل أن تفوته الفرصة ، لأن القرآن ينص على قبولها اثر فعل الذنب ، ورفضها حين يشعر التائب بانتهاء حياته « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحـدهم الموت قال انى تبت الآن » (آيتى ١٧ و ١٨ من سورة انساء) .

« والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » (آيتى ١٣٥ و ١٣٦ من سورة آل عمران) .

وينبغى أن نعلم أن للتوبة فى الاسلام شروطا يجب على التائب أن يوفيها ، ومراحل يجب عليه أن يسلكها مرحلة بعد مرحلة .

وأولى هذه المراحل الضرورية الاقلاع عن الآثام والشرور وعدم الاصرار على العودة الى أى ذنب يغضب الله . بل عدم السماح للتردد بأن يسلك الى نفسه سبيلا .

وثانيتها اصلاح الماضى بقدر المستطاع بشرط ألا يكون الحكم بعدم الاستطاعة خاضعا للأهواء واذا تبين أن هذا الاصلاح غير ممكن لفوات وقته بسبب موت أصحاب الحقوق مثلا ، أو استحالة ردها لفقدان ثروة ، فينبغى تفويض الأمر الى الله ، ومحاولة الاكثار من الحسنات عسى أن يقبلها الله فتمحوا السيئات « .. ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . (آية ١١٤ من سورة هود) .

على أن هذا كله — فيما يرى أدق علماء المسلمين — لا يكون الا حين يتعلق الأمر بالذنوب الخاصة أو بعقد النية على رد الحق أما اذا تعلق بحقوق الغير مع الاصرار فان القانون الاسلامى — فى رأى أولئك المحققين — يكون أشد قسوة

ويتطلب من المذنب أن يضيف الى مرحلتى الاقلاع عن الآثام واصلاح الماضى بالصورة النظرية ، شرطا آخر أو مرحلة ثالثة ، وهى عفو من وقع عليه الظلم فى حالة حياة الظالم والمظلوم عفوا عمليا « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها اليوم .. من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته » . (رواه البخارى) .

فان لم يفعل ذلك فى حالة الحياة ، فانه يرده فى الآخرة ردا فادحا لا طاقة له باحتماله « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « ان المفلس من أمتى من يأتى يوم ا فيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وفد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسنانه ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما علبه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » . (رواه مسلم عن أبى هريرة) .

بان من كل ما تقدم أن الجزاءات الخلقية التى تؤثر تأثيرا مباشرا فى النفس ، وان الجزاءات القانونية الوضعية اتى تحفظ الأنظمة الاجتماعية ، تطبق كلها فى الحياة الأرضية . أما الجزاءات الدينية التى تتعلق بالحياة الأخرى فهى محصورة فى محيط العقيدة . وقد أخذ بعض النقاد على الجزاءات الدينية بوجه عام ، والجزاءات الاسلامية بوجه خاص أنها تفرض القـانون الالهى الالهى فرضا بوساطة الوعد بالمثوبة للمطيعين ، والوعيد بالعقوبة للعاصين ، وذلك يمحو من العمل طابعه الأخلاقى .

والحق أن الاسلام بمنأى عن هذا المأخذ أولا يوجه اليه هذا النقد ألبتة ، لأن الأوامر الالهية قد صدرت في صور متعددة ومأتى ذلك أن الاسلام دين عام يتجه الى بنى الانسان من جميع الطبقات والمشارب والاتجاهات ، والى الضمائر التى تباينت درجاتها بتباين العوامل المؤثرة فيها . ومن ثم فان الوحى الاسلامى يستعمل أشد الحجج تباينا ، وأكثر الأساليب تنوعا ، لـكى يجد فيه كل ما يلائمه ويقنعه ، فهذه التعاليم الاسلامية تتجه بديا الى أنبل النفوس وأعظمها نورا وشفافية ، وهى التى تعتقد أن الله يجب أن يطاع لذاته بلا قيد ولا شرط ، وبلا علة خاصة أو غرض شخصى ، لأنه هو الحق والعدل والجدير بكل حب وطاعة « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . (آية ٥٦ من سورة المدثر) .

وهو يعلم بدرجة هذه النفوس النبيلة ورتبتها من السمو فيخاطبها بالأسلوب الذى تقتضيه حالتها التى لا تتطلع الى أى جزاء خاص . وأولى هذه النفوس الرفيعة نفس النبى الجليل التى يخاطبها الله بقوله : « ولا تمنن تستكثر » . (آية ٦ من سورة المدثر) .

وبعد هذه النفس المحمدية العليا ، يجىء دور النفوس التى تقبلت به واستنارت بنوره فارتقت الى الطبقة التى لا تبغى جزاء ، ولا تخشى عقوبة ، ولا تتطلع الى مثوبة والتى شهد الرسول صلى الله عليه وسلم لها بهذه الرفعة اذ قال : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . (رواه ابن قتيبة) .

ثم يتجه الأمر الالهى بعد ذلك الى نفوس أخرى أقل من الأولى تنزها وابتعادا عن الأغراض فيقدم اليها من القانون ماله مسوغات من التنظيمات الخلقية أو الروحية ، ويذكرها بالنتائج الطبيعية أو الاجتماعية المترتبة على أفعالها . وهذه المسوغات هى التى تتجه الى عدد كبير من المؤمنين المخلصين ، والتى تنعطف الى اتحاد « الخلقية » مع الضرورات الاجتماعية والاعتـدال العملى لكى تتبع القانون الالهى بأمانة واخلاص .

وأخيرا تعنى التعاليم الالهية بالسواد الأعظم ، أو العدد الأكبـر من الأناسى الذين تتفـاوت آثامهم ومظالمهم ، والذين يتمادون فى الشر رغم الأوامر الالهية والتحذيرات الأخلاقية . والى هؤلاء على الأخص تتجه الانذارات بالجزاءات المقررة فى الحياة الأخرى حتى لا يجهل أحد النتائج المترتبة على عصـيان القانون . « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . (آية ١٦٥ من سورة النساء) .

وعلى أية حال ان الذى ينبغى أن يعلم هنا ، هو أن الوسائل المختلفة التى يستعملها الوحى الاسلامى لمعرفة القانون واطاعته قد احتفظ منها بقدر عظيم لأرفع المسوغات ما دام أنه قد وحد بين الأوامر الالهية والخير فى ذاته ، وجعلها مترادفة أو متماثلة ؛ وبالتالى أباح احترام القانون للقانون . ولا ريب أن هذا كاف لتحقيق القيم المثالية السامية فى الأخلاق الاسلامية ؛ أو بالحرى تأسيسها عليها .

عنصر الخلقية وشروطها

بعد هذه الدراسة للظواهر الخلقية العظمى ، نستطيع أن نستخلص من الأخلاق الاسلامية العنصرين المتمايزين اللذين يتفق جميع الأخلاقيين على بروزها فى « الخلقية » وهما :

١ — العنصر المثالى ، وهو المثل الخلقى الأعلى الذى أتى به الوحى الى الانسان : أو هو جماع القيم الروحية كالحقيقة فى ذاتها ، والخير فى ذاته ، والعدل فى ذاته . وهذا المثل الخلقى هو مودع فى الضمير الفردى منذ نشأته . وهو الذى يجتهد الضمير فى أن يلحقه أو أن يحققه .

٢ — العنصر العقلى ، وهو العنصر الضرورى الذى يتحتم وجوده لكى يمنح العمل قيمته الخلقية . ومن أجل ذلك يلزمنا الوحى بالتفكير على الدوام ليحول انتباهنا نحو حياتنا الباطنية

قصد التنقيب فيها عن البواعث التي تحدد سلوكنا وتجعلنا نختار أفعالنا ونرجح — من بين كثرتها الهائلة — هذا على ذلك ، لأن هذا الفعل الذى وقع عليه اختيارنا ، هو الذى يبدو لنا أكثر وفاقا مع المثال الأخلاقى الماثل فى الضمير « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » . (آية ٢٤٢ من سورة البقرة) .

وليس هذا فحسب ، بل ان القرآن ينذر الذين هم على أهبة الاختيار بين الخير والشر فينبئهم بأن اختيار اللذائذ العاجلة هو نوع من الأوهام السيئة النتيجة الوخيمة العاقبة ، وان ترجيح الثابت الدائم هو برهان التعقل والتدبر ، ثم يضرب لهم مثلا مما يمر بهم وحولهم فى الحياة اليومية فيقول : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » . (آية ٢٦٦ من سورة البقرة) .

شروط الخلقية :

يتطلب هذا العنصر الأخير شرطين ليكون شرعيا من الناحية الخلقية ، وهما الارادة والحرية . ففى الواقع ان الارادة ضرورية لتحقيق مثال الحياة المنبثق عن تأملنا . ويجب ان تكون محددة بوساطة قوى أجنبية عنها ، ولكنها حرية داخلية محضة لا تختلط بالحرية المادية ، ولا بالحرية الدينية أو السياسية . وهذه الحرية فى اختيار السلوك يقررها الاسلام للانسان رغم تلك التهم

الزائفة بالجبرية أو المحدودية التى يرميه بها المتعسفون . « وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعــد الحق ووعـدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فــلا تلومونى ولوموا أنفســكم » (آية ٢٢ من ســورة ابراهيم) .

فهل توجد أو تتصور حرية أوسع من الحــرية التى تترك للانسان اســتقلال التصرف الى حد ترك اتبــاع أوامر الله ، والاستجابة الى دعاء الشيطان دون أى ضغط أو قسر ؟ ثم انظر الى الآية الأخرى التى — بعد أن تتيح للنفس كمال الحرية — تحملها المسئولية كاملة أيضا فتقول : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » . (أى أنار لها طريقى التقوى والفجور) قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » . (آيات ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ من سورة الشمس) .

واذن فالفعل — لكى يكون ذا قيمة خلقية مشروعة فى نظر الاســلام — يجب أن يكون مؤسســا على التعقــل والارادة والحرية . وهناك شرط آخر فى قمة الأهمية وهو سابقية النية على كل فعل ، وتوافرها فى الارادة قبل الاقدام عليه . وهذا هو الذى حمل كبار الأخلاقيين والصوفيين من المسلمين كالأئمة: المحاسبى ، والغزالى ، ومحيى الدين بن عربى ، والأنصارى على أن يفردوا لها بين مؤلفاتهم أمكنة واسعة . وسنوجز هنا ايجازا خاطفا هذه المسألة من مسائل الأخلاق الاسلامية فيما يلى :

النيـــة :

هى تركز العقل حين يريد تحديد الباعث الذى يدفعه الى التصميم على عمل ما ، أى لكى تكون النية حسنة ، يجب أن يدرك العقل ما سيفعله ، وأن يريده ، لأنه شيء أمر به القـانون الأخلاقى ، ولأن النفس فى هذه الحالة ليس فيها أى موضع للتردد أو الحرج .

ومعنى هذا أن النية هى أساس العمل ومأتاه ، أى أنها بمثابة الآلة التى برز بوساطتها ذلك العمل الى حيز الوجود كالابصار بالعين ، والقطع بالسكين « انما الأعمال بالنيات وانما لكل أمرىء ما نوى » (أول حديث فى البخارى) .

ولا ريب أن تعبير الحديث هنا بكلمة « انما » لا تخفى دلالته وهى حصر الأعمال ذوات القيمة فى الايجاد بوساطة النية وعن طريقها قبل كل شيء .

ومما يجب أن يقرر هنا أن النية المرادة فى هذا الصدد هى التصميم الحازم الذى لا يقف الا أمام عقبة حقيقية جدية تفوق قواه وامكانياته وليست رغبة مترددة أو محتملة .

ومما يسترعى الانتباه أيضا أن هذه النية الثابتة ، أو هذا التصميم الحازم — حتى لو لم يتحقق بالفعل — هو يستلزم المسئولية والجزاءات الأخلاقيين « قال الله تعالى : اذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فان عملها كتبتها عشـر حسنات » (حديث قدسى رواه البخارى ومسلم) .

على أن السلوك الأخلاقى الخير ، كما لا يتحقق بالعمل المباغت دون النية ، هو كذلك لا يتحقق بالنية الرفيعة وحدها ، ولكنه يتحقق باجتماعهما كليهما مستنيرين بنور الضمير الفطرى المسترشد بهدى الكتاب والسنة بقدر الطاقة البشرية المخلصة . فاذا أهمل شيئا من هذا الاسترشاد فلا يكون لعمله أدنى قيمة « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » . (رواه مسلم) . « لا يقبل الله قولا الا بعمل ، ولا يقبل قولا ولا عملا الا بنية » (رواه أبو طالب المكى فى قوت القلوب) . « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » . (رواه مسلم) . « لا يصلح قول ولا عمل الا بنية ، ولا يصلح قول ولا عمل ولا نية الا بالسنة » . (رواه ابن تيمية عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير) .

وأخيرا كما أن النية — من الحيثية الأخلاقية — ضرورية للعمل المتأمل ، هى كذلك كثيرا ما تكون ذات أثر فعال منتج فى كل عمل مباغت ، لأن القوة التى هى مصدر النية ان كانت صالحة أنتجت خيرا ، وان كانت فاسدة أنتجت شرا ، وفى هذه الحالة المباغتة تكون النية — الى جانب شرطيتها للعمل الأخلاقى — هى منشئة له انشاء فوريا باعتبار صدورها عن تلك القوة الباطنية التى هى مبعث الأفعال الفجائية المباشرة التى لا تأمل فيها خيرية كانت أو شرية : « ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . (رواه البخارى) .

ومما ينبغي العلم به هنا أيضا أن النية ليست هي اختيار الفعل الأخلاقى خيرا كان أو شرا ابتغاء غاية مباشرة فحسب ، وانما هذا الاختيار قد يرمى الى غاية بعيدة المدى . ولكى يكون هذا الفعل ذا قيمة أخلاقية فان النية فيه يجب أن تدير ظهرها الى جميع الرغبات والميول النفعية الداخلية والخارجية لكى تتجه نحو المثل الأعلى الذى يملى عليها سلوكها متخذا الله غايته العليا دون مقابل أيا كان نوعه غير مرضاة وجهه الكريم « من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » (حديث قدسى رواه مسلم) « ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا ، واريد به وجهه » . (رواه النسائى) .

وعلى الضد من ذلك من كان فى نيته وعمله أسيرا لغاية سيئة أو عبدا لشهوة بهيمية أو نفعية فبيت الاصرار على شر غير فورى ، أو رذيلة بعيدة ، كانت مسئوليته الخلقية أشد وأقسى من العمل المباغت . « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » . (رواه البخارى) .

ومما هو جدير بالذكر أن تلك الغايات البعيدة يبدو فيها دور الارادة أوضح منه فى الأعمال المباغتة وبهذه المناسبة ينبغى أن نعلن اعجابنا بافاضة الامام الغزالى فى تحليل الارادة البشرية وتقسيمها الى الارادة الضعيفة ، والارادة الضالة ، والارادة الفاسقة أو الفاجرة ، وما الى ذلك مما لم يفض فيه مثله القدماء

ولا المحدثون ، ولا المعاصرون من علماء الأخلاق ، ولا من علماء النفس .

وأياما كان ، فان الما منسأنية تقتضى أن من تفلت من يده القمة يهوى الى أدنى . وتطبيق هذه القاعدة هو أن يترك الغاية العظمى ، وهى المرضاة الالهية ، يهوى الى مستوى الفوائد والمنافع سواء أكانت خاصة منخفضة المرتبة بسبب ما فيها من بواعث النفعية الشخصية ، أم عامة محترمة بعض الشيء بسبب ما فيها من بواعث الصالح العام أو التنظيم الاجتماعى .

ولما كانت قمة الأخلاق المثالية عسيرة على أكثر البشر ، فقد جعل الاسلام مرتبة وسيطة بين الدرجة العليا والدركة الدنيا ، أو بين الالتزام الخلقى الأعلى ، والمحظورات المذمومة . وهذه المرتبة الوسيطة هى مرتبة التسامح التى يضع فيها الأعمال الناشئة عن النية البريئة والتى — وان كانت لا تصعد الى التنزه عن الأغراض — هى لا تهوى الى الغاية الوضيعة التى يحظرها القانون الخلقى ، ولكنها لا تترك نفسها تنساق مع أهداف مشروعة بتسامح فيها القانون السماوى لأنها . ناشئة عن الضعف الانسانى الداخل فى نطاق العفو الالهى الرحيم ولا يحظرها القانون الوضعى لأنها لا تسيء الى الأفراد ولا الى المجتمعات ، بل على الضد من ذلك هى تسهم فى تشييد الأنظمة الاجتماعية .

أما القانون الأخلاقى الاسلامى ، فهو يعتبر الأعمال التى من هذا الطراز خالية من القيم الأخلاقية خلوا تاما .

المجهود الشخصي :

رأينا أن الفرد له حرية الاختيار في سلوكه ، ورأينا أن من هذه المنزلة تنبثق ضرورة العمل المستقل ، واحتمال كل مسئولية أفعاله : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » . (آية ١٠٥ من سورة التوبة) « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . (رواه البخاري ومسلم) .

ولكن العمل العادي لا يكفي وحده ، وانما ينبغي أن يكافح المرء بقوة وصلابة . واذا ألقينا على الكتاب والسنة نظرة فاحصة ألفيناهما في كثير من المواضع يدعوان الى هذا المجهود الثابت المتواصل سواء أكان ذلك لتحقيق الخير أم لمكافحة الميول الشريرة أو الاهواء الضارة . أم للصبر على احتمال المحن في تأدية الواجب . وفي جميع هذه الأحوال ، يجب أن يكافح المرء بقوته ، بل بكل قوته دون اهمال أي شيء من طاقته « فاتقوا الله ماستطعتم » . (آية ١٦ من سورة التغابن) . « فلا اقتحم العقبة وما أدراك مالعقبة .. » (آيتي ١١ و ١٢ من سورة البلد) .

وعلى غرار المسئولية نرى أن المجهود ليس له قيمة أخلاقية الا حين يكون في خدمة الفضيلة المنزهة عن الأغراض : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » (آيتي ٤٠ و ٤١ من سورة النازعات) .

وينبغي أن يعرف أن النهي هنا معناه النجاح في اسكات صوت الأهواء وابعادها عن فتنة النفس ، وليس معناه مجرد

النهى الذى هو ضد الأمر ، اذ أن هذا المعنى الأخير لا يعد مجهودا ذا قيمة .

على أن قيمة المجهود البشرى لا تقف عند هذا الحد الذى قدمناه ، بل هو فوق ذلك خصب مثمر ، لأنه لا يكاد يبتدىء من جانب الانسان بنية الاستمرار فيه باخلاص حتى تفيض معونة السماء التى وعد بهاالوحى لارشاد القائم به ومساعدته وتأييده « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . (آية ٦٩ من سورة العنكبوت) .. « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . (آية ١٧ من سورة محمد) . « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم » . (آية ٩ من سورة يونس) . « من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله » . (رواه البخارى) .

ومعنى هذا الحديث أن من يقوم بمجهود للتغلب على هواه قصد التعفف تساعده السماء فى الوصول الى ما يبغيه ، ومن يحاول أن يكون غنيا عما تفتنه به أعراض الحياة ، أغناه الله عنها .

ومما يسترعى الانتباه فى هذا الشأن أن هذا المجهود الذى يبذله المرء فى عمل الخير ، له ثلاث درجات الأولى الاختيار الارادى ، والثانية حسن الاختيار ، والثالثة اختيار الأفضل . وهذه الدرجة الأخيرة هى التى تدعو اليها الأخلاق الاسلامية وتحبذها « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » . (آيتى ١٧ و ١٨ من سورة الزمر) . « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم (١) .. » (آية ٥٥ من سورة الزمر) . « فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (آية ٤٨ من سورة المائدة) . « ان الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها » (عن الطبرانى رواه السيوطى فى الجامع) .

وليس هذا فحسب ، بل انه كان أمام الانسان اختياران مرضى عنهما كليهما ، ولكن أحدهما يحتاج الى الصبر والجهاد النفسى لسموه على الآخر ، يجب أن يتذرع بالصبر ، وان يحتمل المكاره فى سبيل اختيار أسمى .. « وأن تصبروا خير لكم » . (آية ٢٥ من سورة النساء) . « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (آية ١٢٦ من سورة النحل) .

ومما هو خليق بالملاحظة أن انتزاع الحق من الظالم عدل ، وأن العدل فضيلة من أعظم الفضائل ، ولكن العفو أرفع وأسمى ، وأقرب الى تقوى الله ورضوانه . « وان تعفوا أقرب للتقوى » . (آية ٢٣٧ من سورة البقرة) .

بيد أن الأخلاق الاسلامية لا تسمح بالافراط فى تأدية واجب على حساب واجبات أخرى ، بل هى تأمر بأن توزع الجهود

---

(١) لايفوتنا هنا ان ننبه الاذهان الى ان الاحسنية فى هذه الآية الكريمة لاتتعلق بالوحى فى ذاته لان الوحى ليس فى أجزائه أفضل ولا أفضل لأنه كله فى أوج الافضلية ، وانما أفعل التفضيل هنا يتعلق بما هو أفضل للناس مما هى الأوامر الالهية ومأتى التفاوت فى هذه الأوامر هو ملاءمة أحوال المأمورين لها واتساقها مع طاقتهم .

توزيعا عادلا معتدلا بحيث لا يعطل واجب واجبا آخر ، أو يؤدى الى هجران الأعمال أو الى توقفها ، أو يتسبب واجب دينى مثلا فى اهمال ما أوجبه الله على الانسان نحو نفسه أو نحو أسرته . أو نحو مواطنيه ، أو أى واجب آخر هام . « علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه » (آية ٢٠ من سورة المزمل) .

« ان لربك عليك حقا ، وان لنفسك عليك حقا » . (رواه البخارى) .

وقصارى القول فى هذا كله أن المجهود يجب أن يصدر أولا عن تفكير بعيد ، وتأمل عميق . ثانيا يجب أن يختار أسمى الأشياء وان كانت شاقة متعبة ، وأن ينظر فى الخيرات والفضائل الى ما هو أرفع من مستواه ، وفى أعراض الحياة الزائلة الى ما هو أدنى من ذلك المستوى . ليكون دائما فى راحة الرضى وسعادة السكينة .

ويرسم لنا الحديث الشريف هذه الخطة المثلى فيقول : « خصلتا من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله لا شاكرا ولا صابرا . من نظر فى دينه الى من هو فوقه فاقتدى به ، ونظر فى دنياه الى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ، كتبه الله شاكرا صابرا . ومن نظر فى دينه الى من هو دونه ، ونظر فى دنياه الى من هو فوقه فأسف على مافاته منه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا » . (رواه الترمذى) .

الكرامة الإنسانية

مما لا ريب فيه أنه بقدر ما تتوالى الوثبات التقـدمية فى المدنية ، وبقدر ما تشعر المرء بالواجبات التى تفرض عليه وتلقى على عاتقه ، كالواجبات الأسرية والاجتماعيةوالسياسية بأنواعها ، لا يستطيع أن يتخلى عن أن يدرك فى الوقت ذاته فكرة رفيعة عن نفسه ودوره فى الحياة ، وعن قيمته كفرد منحته السماء نعمة العقل والتفكير بغض النظر عن منزلته الاجتماعيـة وثروته ومولده .

ومما لا ريب فيه أيضا أن هذا الشعور هو الذى يدفعنا الى اعلان استحقاقنا للاحترام أمام أنفسنا قبـل كل شىء ، ثم الى المطالبة بالظفر به لدى الآخرين ، ولكن لا بدافع الأنانية ، بل بدافع احترام الانسانية المثالية فى أشخاصنا .

هذه المشاعر العالية كلها كانت مجهولة فى الغرب الى عهد قريب ، ولم تنتعش وتقو الا منذ القرن الثامن عشر الذى أطلق عليه فى أوربا اسم « عصر الأنوار » ويحلل « كانت » هذه الأحاسيس بتعمقه المألوف فيقول :

« ان الانسان هو فوق كل تقدير حين ينظر اليه على أنه موضوع للأخلاق العملية ، لأنه من هذه الوجهة لا يمكن أن يعتبر وسيلة لأية غاية من غايات الآخرين ، بل لأية غاية من غاياته هو. ولكن يجب أن ينظر اليه على أنه غاية فى ذاته ، أى على أنه يحتوى على كرامة محترمة ، وقيمة مطلقة نابعة من ذاته نفسها . وعن طريق هاتين الصفتين الرفيعتين ، يلزم كل الكائنات العاقلة باحترام شخصيته ، وهما اللتان تسمحان له بأن يقيس نفسه بكل واحد منهم ، وبأن يعتبر نفسه معهم على قدم المساواة » . (نظرية الفضيلة) .

وأياما كان ، فان هذه المشاعر — ولو أنها شخصية محضة — كانت لها نتائج اجتماعية خطيرة الأثر ، لا سيما عندما تخلصت من غواشى العوامل الأخر ، وأصبحت واضحة لا تشوبها أية شائبة أجنبية ، اذ جعلت تنعطف شيئا فشيئا نحو الحرية ونحو العدالة التى تحقق احترام حقوق الجميع على صورة يطبعها النمو ، ويميزها الاطراد . وما زالت تسير على هذا النحو حتى نشأ منها النظام الديمقراطى الحديث الذى يبدو أنه هو النظام الوحيد الذى يتفق مع مطالب الكرامة البشرية .

ومن مميزات هذا العصر الراهن أن المناداة بالديمقراطية تكاد تصم الآذان ، وأن الجميع لا يكفون عن التحكك بها . ولكن هذا من جانب الأكثرية الساحقة من الغربيين نظرى فحسب بل هو رياء ونفاق ، لأننا نشاهد أن الاستعمار والتسلط فى كل ساعة من ساعات النهار والليل يدوسان بأقدامها الحديدية تلك الديمقراطية المسكينة بلا رحمة ولا اشفاق ، بل دون أدنى علامة من علائم الانسانية .

ومما يسترعى الانتباه فى هذا الصدد ، أن أعنف المقاومين الآن لهذه الاهانات الماثلة فى الاستعمار هم المسلمون الذين عندما استيقظوا من سباتهم الذى ألقى بهم فيه استعمار قديم ، ونفضوا عن أنفسهم غبار السنين ، لم يجدوا أقل عسر فى استكشاف الكرامة الانسانية ممزوجة بكل مبادىء دينهم وتعاليمه . ومن ثم فان المسلمين لم يكونوا فى حاجة الى التنقيب عن هذه الكرامة وتلك العزة فى أصول دينهم ، بل لم يكونوا فى حاجة الى كثرة التأمل فيه لاستخلاصهما منه ، اذ أن الوحى الاسلامى قد وضعهما للجميع دفعة واحدة ، وفى نور وضاء متلألىء « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . (آية ٨ من سورة : المنافقون) .

ولذلك أجمع المسلمون وغير المسلمين من الذين درسوا الاسلام ، على تقرير أنه دين الكرامة والعزة بأكمل هذين المعنيين . ولقد عنى القرآن فى كثير من آياته عناية فائقة بأن

يوقظ البشرية ، وأن يغرس فى نفوس أفرادها بلا استثناء شعورا واحدا شاملا ، مؤداه أن العزة والكرامة متأصلتان فى عنصرهم الأساسى « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (آية ٢٩ من سورة الحجر) . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » (آية ١١ من سورة الأعراف) . « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون » . (آيتى ٧٢ ، ٧٣ من سورة ص) . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (آية ٧٠ من سورة الاسراء) .

ولم يقتصر البارى جل وعلا — بازاء هذا الانسان — على تكريمه وتفضيله اللذين أشرنا اليهما آنفا ، بل تفضل عليه فخلقه فى أحسن صورة ، وسواه أحسن تسوية وكذلك تكرم عليه بأن يخضع له كثيرا من خلقه اخضاعا واقعيا وأن يسخروه له تسخيرا عمليا ، وأن يجعل بعض مبدعاته الباهرة وسائل لغاياته وأهدافه ، بل لسعادته وهنائه ، وأن ينبهه الى ذلك كله ليشعره بقيمته ، ويخطره بمكانته « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . (آيتى ١٠ ، ١١ من سورة النحل) . « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . (آية ٢٠ من سورة لقمان) .

وعندما أحس المؤمنون الذين اهتدوا الى الاسلام بهذه الكرامة التي نبأهم بها القرآن والأحاديث القدسية والنبوية ، كان لها على نفوسهم وقع عظيم الأثر . ومن يريد التحقق من هذا التقدير لدى المسلمين ، وأثره في نفوسهم ، فلينظر مثلا الى مسلمي افريقيا المركزية ، وليقرأ كتب الرحالة الأوربيين في أوصافهم لسكان هذه الأصقاع ، فهم يحدثوننا عن مقدار ما أحدثه هذا الأثر ، و لايزال يحدثه من تدفق هذا القسم من البشر على الاسلام جماعات وأفواجا بسبب ما وجدوه في مبادئه من العزة والكرامة والعدالة والمساواة . ولقد وصف جريدة « الموند » الفرنسية هذا التدفق فنشرت في ١٦ يناير من سنة ١٩٥٧ « ان عدد المسلمين في افريقيا ، قد زاد فيما بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٥١ من أربعين مليونا الى ثمانين مليونا ، وأن الأرقام تتزايد في كل يوم » .

ولقد لفتت هذه الزيادة المطردة أنظار الباحثين الغربيين الذين لا يكفون عن الملاحظة ، ودفعتهم الى التنقيب عن أسبابها ، فألفوا — بعد الدراسة الدقيقة - أن في مقدمة هذه الأسباب ذلك الشعور بالكرامة الذي يغرسه الاسلام في نفوس معتنقيه ، والذي يمثل في حياتهم الفردية والاجتماعية أهم الأدوار وأجدرها بالعناية والاعتبار . ولم يفت أولئك المؤلفين من الرحالة أن يسجلوا في كتبهم أن هؤلاء المهتدين الجدد الى الاسلام يدركون ويقدرون صعودهم المتواصل على درجات السلم الاجتماعي ،

فمن ذلك تلك المحاضرة الشائقة التى ألقاها الأستاذ الفـرنسى « شيليه » فى دكار عام ١٩٥٩ والتى يقول فيها ما يلى :

« ان الاسلام يمثل — بالنسبة الى الفرد الذى يتخلص من تأثير القبيلة — تماسكا رفيعا ومستوى من الحياة عاليا ، وثقافة سامية وجوازا مشروعا للرحيـل الى أى مكان ، وللتغلل فى أجناس أخر » .

وكذلك الأستاذ « روندو » مدير الدراسات العليا فى أفريقيا وآسيا الحديثتين يسجل فى كتابه « الاسلام ومسلمو اليوم » ما نصـه :

« ان تقبل الأمة الاسلامية للمهتدى الجديد تام ، فهى تمنحه الشعور برقيه الاجتماعى وفوق ذلك ، فان العامل أو التابع لأى رئيس مسلم ، يتحرر فى رحوبة من انخفاضه البدائى بمجـرد اعتناقه الاسلام الذى يعلم المساواة الأساسية بين جميع المؤمنين دون أى امتياز جنسى ، وأن حياته المعنوية تتغير تماما عندما يدخل فى « الأمة » . ومنذ تلك اللحظة ينقطع عن أن يكون وحيدا منعزلا » (ص ٤٦ من الجزء الثانى) .

وهكذا يكشف الاسلام للمهتدى الجديد كرامته كمؤمن مهما كانت حالته الاجتماعية متواضعة . ولكن هذا الشـعور بالكرامة الانسانية ، يجعل التعارض مع السقوط وفقدان الكرامة هائلا حين يترك الصراط المستقيم الذى وضعه الله عليه بكثير من

التشريف ، واذن فعليه وحده أن يحتفظ بتلك المنزلة بوساطة تطبيق الفضيلة وملاحظة القانون الأخلاقى القرآنى ، بل القانون الأخلاقى فحسب ، لأن جهود الفكرى البشرى المبذولة فى التنقيب عن الخلقية الفطرية المودعة فى الانسان عن طريق الدين الفطرى قد انتهت بالعثور على القاعدة الجوهرية للقانون الالهى كما نستطيع أن ندركه حين نوازن بينه وبين الوحى الاسلامى ففى الواقع أننا نشاهد فى النصوص الاسلامية آيات وأحاديث حازمة حاسمة ، ضد كل من ينحرف عن الطريق السوى ويهوى — بسبب فعل الشر — عن منزلته كانسان ، وهكذا نجده خليقا بوصف القرآن : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (آيات ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة التين) . « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . (آية ١٧٩ من سورة الأعراف)

ونحن اذا نظرنا فى الأخلاق الحديثة نظرة فاحصة ، ألفينا أنها تشارك القرآن فى وجهة نظره هذه ، دون أن تعرف ذلك ، اذ أن كل الذين يسيئون الى الكرامة البشرية كاللصوص والفجار والسكيرين والجشعين والقساة الذين يعدون على اخوتهم فى الانسانية فيصيبونهم فى حياتهم ، أو فى حريتهم أو فى ثروتهم ، هى تحكم عليهم بالسقوط المعنوى وتدينهم بالانفصال عن كل ما يربط « الحالة البشرية » بالنبل والرفعة .

ومما يزيد هذه الفكرة ايضاحا أننا اذا أردنا أن تتحدث اليوم مع أحد المعاصرين باللغة التى تتفق مع زماننا هذا فانه يجب علينا أن نتحدث معه عن الظفر بالكرامة الانسانية عن طريق الكفاح ضد الطغيان والاستعمار لنيل الحريتين : الداخلية والخارجية . وعن طريق العمل المشرف الذى يعيد للاناسى عزتهم التى أساءت الى البطالة الناشئة عن الغير والتى صارت موضع الفخر والمباهاة لدى « العاطلين بالوراثة » ولكى ينبغى أن نعلم أنه لا كرامة للمرء الذى يعمل دون أن يعرف لماذا يعمل أو بعبارة أوضح : لا كرامة لمن يعمل بلا غاية ولا هدف فيكون مثله كمثل الأنعام أو هو أضل سبيلا . وانما يجب أن يتخذ العمل معنى خاصة ودلالة محددة ، أو بالحرى يجب أن يصير العمل لوجه الوطن العزيز المحبوب الذى يتحقق فيه مقر اشتراكية معتدلة كتلك الاشتراكية التى حققناها الآن فى مصر بعد أن انتزعنا عناصرها كلها من قانوننا الأخلاقى الاسلامى الذى يدين فى قوة عنيفة جميع الذين يصيبون الانسان فى حريته وكرامته ، أو يعتدون على أى شيء يخصه : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (آية ١٩٠ من سورة البقرة) .

بيد أننا — مع الأسف الشديد — نشاهد أن بعض اخواننا من الأمة الاسلامية ، لم ينتهوا بعد من التخلص من تلك السيادة البغيضة التى تعمل فى نشاط على تحليل أخلاقهم ، وتفكيك روابطهم ، وتحطيم وحدتهم ، وتستبقيهم تحت سيطرتها

الاستغلالية المفسدة . ولا ريب أننا نحن الذين قد تخلصنا من هذه الرواسب المخجلة — بوساطة ثورتنا الراهنة — ولله الحمد أولا وأخيرا — نستطيع وحدنا قبل الجميع أن نقدر وزن الكفاح الذى ينبغي القيام به فى هذا الصدد ، وأن تقيس الطريق الذى يجب قطعه قبل الوصول الى الهدف الأسمى الذى يحقق للأمة العربية الاسلامية كلها تلك العزة المثالية التى نادى بها القرآن في وضوح وجلاء مرات عدة ، وعلى صور متنوعة .

ونحن اذا رجعنا بأفكارنا الى حقبة السيادة الأجنبية والطغيان الداخلى وهى حقبة ليست بعيدة عنا كثيرا ، وان كانت تبدو لنا الآن — لبغضها وسماجتها — منغمسة فى أعماق عهد قد باد وانقرض . وأصبح فى خبر كان غير مأسوف عليه ألبتة . اذا استعدنا الى أذهاننا هذه الذكرى ، أحسسنا برعدة تملك علينا كياننا كله من هول الحكم الذى كان يصدره الناس علينا من أننا اما نيام لا ندرى بما يمر بنا ، واما أننا مفقودو العزة ولا نحس بما يجرح كرامتنا ، ويهين انسانيتنا .

ولقد سألنى رئيس تحرير مجلة « الجيل » مرة بمناسبة أحد أعياد الثورة قائلا :

ما أعظم مكاسب الثورة فى رأيك ؟ فأجبته بما يلى :

ان مكاسبنا فى رأيى تتركز على الأخص فى الكرامة والعزة اللتين حصلنا عليهما ، وهما تتقدمان كل المكاسب المادية ، ولو

لم يكن للثورة الا أننا أصبحنا مطلوبين لا طالبين ، ومقصودين لا قاصدين ، وأصبحنا يؤخذ عنا لاو نأخذ عن أحد . لو لم يكن للثورة غير هذا لكفى ، لأنى لا زلت أذكر كيف كان وزراؤنا يحجون الى لندن فى كل عام ليستجدوا من انجلترا مقاعد الوزارة أو ليستعدوها على الملك الظالم الى حد أن مستر (ايدن) سئل مرة فى مجلس العموم : لماذا تحتقرون الوزراء المصريين ؟ فأجاب بقوله :

« ماذا نصنع لوزير حقير ذليل اذا رأى انجليزيا خفض رأسه حتى كاد طربوشه يلمس الأرض ؟ فهل نحن اله نمنحه الكرامة » .

ها نحن أولاء — بعد تلك العهود المظلمة كرامتنا كاملة ، وهى الشىء الوحيد الذى يميز الانسان على كل ما عداه من الكائنات الأخرى .

ومن تداعى المعانى فى هذا الشأن أن مطالعتنا فى المؤلفات الأوربية ، تعيد الى ذاكرتنا من حين الى آخر ما كنا نقرؤه فى العهود البائدة فى حزن مرهق وأسى مرير وتدفعنا الى أن نستعيد الآن — بعد التخلص من تلك المآسى المقيتة — فى مرح وسرور ما كان يكتبه عنا بعض الذين يحبوننا من أصدقاء الاسلام الغربيين كالكاتب الروائى الفرنسى « بيير لوتى » حين كان يتأمل فى حالة مصر الخاضعة للسيادة الاستعمارية فى أوائل هذا القرن اذ يقول فى كتابه : « موت فيليه » ما يلى :

« يوجد من بين هؤلاء الشبان المسلمين والأقباط الذين يتخرجون فى المدارس ، كثير من العقليات الممتازة ذوات الذكاء الرفيع ، وكنت أود أن أهتف بهم قائلا : اعملوا على تحقيق رد الفعل قبل أن تفوت الفرصة ، ودافعوا عن أنفسكم ضد الغزو المفتت المذيب ، واحتقروا هذه « البضائع » الغريبة الرديئة التى يغرقونكم فيها بعد ما تبور وينصرف الناس عنها عندنا (١) . وحاولوا أن تحتفظوا بتقاليدكم ولغتكم العربية الجديرة بكل اعجاب ، لأن الأمر يتعلق بكرامتكم القومية .. انكم شرقيون (وانى أنطق باحترام هذه الكلمة التى تتضمن ماضيا ذا حضارة نضجت قبل الأوان وعظمة نقية) بينما أنهم — بعد بضعة أعوام — اذا لم تأخذوا حذركم ، فسيجعلون منكم سماسرة أفاكين لا تنشغلون الا بتقييم أثمان الأرض وارتفاع أسعار القطن .

ثم يتحدث عن فلاح مصر فيقول :

« مسكين ذلك الجنس المتين الذى لا يتعب . انه كان فيما مضى يمتلك نور العالم ، وها هو ذا قد هوى فى نوع من النوم المتهالك الذى يسر مهمة الغزاة فى الماضى والمستغلين فى الحاضر

(١) كان بيير لوتى • بهذه العبارات الخالدة ـ كأنه يقرأ من وراء حجب الغيب ماسيحدث فى النصف الثانى من القرن العشرين بازاء الوجودية السارترية الملحدة التى اصبح السطحيون المتحللون من المصريين يتعلقون بها بعد أن ماتت ودفنت فى مهدها ، او اصبحت خرقة بالية مهلهلة على اقل تقدير •

.. لقد حان الوقت لايقاظ ذلك النائم عشرين قرنا ، لنرى ما لا يزال قادرا على اعطائه اليوم ، وأية مفاجأة لا يزال يحتفظ لنا بها بعد هذا النوم .

ومهما يكن من شيء — اذا حدث ذلك الاستيقاظ — فان هذا النوع البشرى الذى هو الآن فى طريقه الى الانحدار بسبب الارهاق ، سيجد لدى هؤلاء المغنين على الشادوف والحارثين بذلك المحراث المغرق فى القدم رؤوسا لم تكد تمسها القحول ، ورصيدا عظيما من الجمال والاتزان البدنى ، وطاقات قوية بلا بهيمية » .

ولقد كانت هذه العبارات الصادرة من قلب نظيف صديق ، كأنها نبوءة لم تلبث أن تحققت اذ قد وضعت السماء مصر — بوساطة هذه الثورة المباركة — على رأس البلاد الاسلامية والعربية . وليست هذه المكانة بالنسبة الينا مصدر فخر ومباهاة نستفيد منها المجد والتشريف ، وانما هى مسئولية عظيمة وواجب ثقيل يستدعى التنبه الدائم ، والعمل المستمر والشعور بجدية الموقف لا على مر الشهور والسنين ، بل على مر الأيام والساعات. ولا ريب أن هذا الشعور بالمسئولية ، لا يخلو من لذة رفيعة تستوجب بديا شكر البارى على نعمة هذا الامتياز ، ثم تقدير ذلك الزعيم العظيم الذى منت به السماء على أرض الكنانة

والأسرار فأنقذها بعون الله وتوفيقــه من مخالب الاســتعمار وعملائه وسماسرته ، والذى يقود هذا الوطن العزيز فى طريق الأحرار الأعزاء وعلى صراط المؤمنين الذين يتخذون الحــق نبراسهم والخير غايتهم .

إن القانون الخلقى السماوى الموجه للبشرية فى طريق النور المحقق لها السعادة الأبدية الــكاملة قــد تركز كله فى العــدل الخلقى « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم » (آية ١٥ من سورة الشورى) « الله الذى أنزل الــكتاب بالحق والميزان » (آية ١٧ من سورة الشورى) « لقــد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (آية ٢٥ من سورة الحديد) .

العدل

من هذه العناية الربانية التى تفضل بها ذو الجلال والاكرام على البشر أنه — سبحانه — قرن الميزان المعنوى فى الآيات الكريمة دائما بارسال الرسل وانزال الكتب وأبان للناس أنه هو الذى أنزل ذلك القانون ووضع حدوده المعنوية ، وأمرهم بتطبيقاته العملية وعبر عنه بالميزان تقريبا لعقولهم ومجاراة لمألوفاتهم رحمة بهم وهذا كله يصور لنا مقدار أهمية العدل على أنه مبدأ تأسيسى فى الاسلام يوشك أن يكون بعد درجة التوحيد وذلك معنى خطير يجب أن يلفت أنظارنا ويسترعى أفكارنا .

وهناك تفننات أخرى فى حديث القرآن عن العدل ، منها أنه جعله أقرب المراتب الى التقوى التى هى أساس كل وضع معنوى وعملى فى الاسلام « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (آية ٨ من سورة المائدة) .

ومن هذه التفننات الحكمية أيضا أنه تعالى يصدر به أوامره تصديرا يشهد بأساسيته لأن تعبيرات القرآن هى دائما على قمة الفصاحة ، وأوج البلاغة العربيتين • وديدن العرب تقدمة ما هو أهم ، فلا يمكن من الناحية الفنية المحضة اهمال صدارة العدالة فى قوله جل شأنه « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (آية ٩٠ من سورة النحل) •

واذ قد عرفنا ذلك فقد وجب أن تتبين هذا القانون الالهى الذى كان الميزان المذكور فى القرآن ترجمة له ومرادفا للفظه ، وهادفا الى معناه ، والذى كانت العدالة معرفته ثم طاعته • ومجمله هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن المعروف هو كل ما أمر الله به ، وأن المنكر هو كل ما نهى الله عنه ، أو أن المعروف هو الخير أو الحسن ، وأن المنكر هو الشر أو القبح « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » • « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » (آيات ١٠٤ و ١١٠ و ١١٤ من سورة آل عمران) •

وعندما رأى أعلام المستشرقين هذا المعنى الاسلامى للعدل لم يسعهم الا أن يعجبوا به أشـد الاعجاب ؛ وأن يقفوا أمامه مبهونين ، لأن أحد أفذاذ مفكرى أوروبا فى عصورها الوسيطة بل أعظم شخصيات الالهيين المسيحيين على الاطـلاق ــ وهو القديس توماس الاكوينى ــ قد عرف الأمر بالخير والنهى عن الشر بأنهما هما « العنصران المكونان للعدالة » .

الحقوق والواجبات :

والآن يجب علينا أن نعرف معنى المعروف والمنـكر اللذين تكون العدل من الأمر بأولهما والنهى عن ثانيهما . وبيان ذلك أن مفردات الأول تتـألف من حقوق الله وحقـوق البشر وأن مفردات الثانى مكونة من تعدى حدود الأول . ونحن لا نريد أن نقف عند هذ ەالنقطة طويلا لأن علماء الكلام قد تبسطوا فى تفاصيلها ، وأسهبوا فى شروحها ودرجاتها ودلالتها اسهابا تعد كل محاولة بعده نافلة عابثة . وانما الذى يعنينا هنا هو حد العدل الخلقى بأنه (ايتاء كل ذى حق حقه) . وهو عين ذلك التعريف الماجد الذى عرفهـا به الرومان ــ وهم سدنة القانون الأولون وأئمته المتفوقون ــ اذ نعثر على هذا المعنى نفسه فى نصوص تشريعاتهم الأولية ونخص منها بالذكر نصوص مشرعهم الخالد أولبيان » .

ومهما يكن من الأمر ، فانه ينبغى أن نشير هنا الى حقوق الله ــ وهى التى تتفـرع منهـا حقوق البشر ــ فنقرر أنها قد

أجملت كلها فى ذلك الميثاق الخطير الذى أخذه المبدع جل جلاله على النفوس البشرية قبل هبوطها فى عالم الأشباح « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم • قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » (آية ١٧٢ من سورة الأعراف) •

ولا ريب أن الاعتراف بالربوبية فى هذا الميثاق يستلزم الطاعة التامة فى تنفيذ الأمور واجتناب النواهى أيا كان نوعها والا حدث الجحود بجلائل النعم ودقائقها التى لا تندرج تحت حصر والتى هى مفهومة فى كلمة الربوبية ، بل متضمنة فى معناها ومرماها تضمنا جوهريا ، بل قد يكون من دواعى التصريح بها والنص عليها هنا هو تذكير بنى الانسان بتلك النعم التى أحدقت ولا تزال تحدق بحياتهم احداق السوار بالمعصم ، وتنسكب عليهم انسكاب ماء المزن على الأرض القاحلة لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج •

واذا حدث هذا الجحود والكنود . ووقع الغدر بالعهد ، وتحققت خيانة الميثاق ، استحق الغادرون السخط ، واستوجب الخائنون العقوبة « ان الله لا يحب كل خوان كفور » (آية ٣٨ من سورة الحج) •

ولا ريب ان اقصاء الغادرين عن سعادة الحب الالهى الى شقاء بغضه يكون عدالة ليس بعدها عدالة ، لاسيما اذا كانت

الرحمة الالهية قد أحاطت أولئك المتعدين بتذكيرهم الميثاق عدة مرات لكيلا ينسوا عهودهم ، ولا يغفلوا عن مواثيقهم فيكون نسيانهم حجة ، وغفلتهم عذرا لعدم الوفاء بموثقهم مع الله • أما اذا غدروا متذكرين ، فقد حقت عليهم كلمة الله عدالة وانصافا « فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (آية ١٠ من سورة الفتح) •

ومما هو جدير بالذكر هنا أن العدالة الفائضة عن هذا الميثاق تبدو فى ثلاثة مظاهر جوهرية ينبع الأخير منها من الأول ، وهى:

١ — علائق المؤمن بربه •

٢ — علائق المؤمن بالمؤمن •

٣ — علائق المؤمن بغير المؤمن اذا كان بينهما عهد « من اتقى الله اتقى الناس» وهذان المظهران الثانى والثالث يبينان جانبا هاما من جوانب الأخلاق الاجتماعية الاسلامية ويطبعانها بطابع خاص يميزها عن كل ما عداها •

ونحن اذا تحدثنا هنا عن حقوق الله فاننا نستعمل هذا التعبير فى شيء عظيم من التجوز لأن حقوق الله الحقيقية ليس فى طاقة البشر أن يقوموا بأدائها ولو أضيف الى قواهم أضعافها، والى أعمارهم أمثالها ، والى امكانياتهم أشباهها ، وانما نحن نعلم علم اليقين أن حسب هذه القوى البشرية المحددة اخلاص النية،

والاعتدال فى كل أمر أمر به الله جل جلاله ، لأن المقصود هو الطاعة التى تنتج التطهير والسير نحو الكمال ، لا استنفاد القوى وارهاق الملكات « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ان المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » (رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده عن أنس) « وأنا أقربكم الى الله وأخوفكم منه ، ومع ذلك فأنا أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام » رواه البخارى) . ولقد حاول بعض علماء المسلمين المجتهدين أن يحددوا حقوق الله على البشر (انظر كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية) ونحن لا نميل الى هذا التحديد لأن تلك الحقوق فى نظرنا غير قابلة للاحصاء .

وأما فضيلة العدالة التى تربط المؤمنين ، فهى تشتمل على المساواة المطلقة فى الحقوق وتلزم الحاكم بأن يحكم بين الجميع بالعدل ، وأن يطبق القانون فى دقة وعناية وبلا أى تمييز بين الجميع بقدر ما تسمح به الطاقة البشرية ولو كان هذا التطبيق يدين الأقوياء والأثرياء وذوى الجاه والسلطان لصالح الضعفاء والفقراء والنكرات . « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (آية ٥٨ من سورة النساء) . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى (آية ٨ من سورة المائدة) .

ومما يشرف الاسلام فى هذه النقطة أنه وضع للعـــدل هذا المعنى العلوى الخالد وهو المساواة المطلقة ، وفرضه فى عالم لم يكن ــ وقت ظهور القرآن ــ يولى أى اعتبار ؛ بل لم يكن يقيم أى وزن لتلك المساواة . وانما كان يدرك العدالة على أنها يجب أن تحوى بين عناصرها الأساسية عنصر الفوارق الاجتماعية فلما جاء الاسلام وأمر النبى الجليـــل من لدن الوحى أن يصـــدع بالعدل المطلق والمساواة التامة ولو كرهت عنجهية العرب فـــلم يتردد ــ وهو لا ينطق عن الهـــوى ــ فى أن يرفع الصـــوت جهرة بهذه العبارة الهائلة الخالدة التى حطمت أمامهـــا أسيجة التقاليد البـــدوية ، ونسفت حصون العصـــبية العـــربية وهى : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » (رواه الترمذى والبخارى) .

فلما دوى صوت الحـــديث الشريف بهذا المبـــدأ الحازم الحاسم بين العرب ، لم يستطيعوا الا أن يذعنوا لأمر السماء ، فتخلوا ــ ولو بعد لأى ــ عما ورثوه من تراث الوثنية الأولى. وقصة « جبلة » مع الصعلوك أمام عـــدل « عمر بن الخطاب » لا تزال تتلألأ بما يشرف الاسلام ، ويسمو بمبادئه وتعاليمه الى السماكين ، ويسجل رفعتـــه على تعاليم الأولين والآخرين دون استثناء .

ولقد وضع أحد المشرعين القدماء فى أخلاقه مبدأ التفريق الاجتماعى ، اذ ميز بين صورتين من صور العدالة،أولاهما العدالة

التى ترد الحقوق ، وتدفع المظالم ، وهذه لا تنظر الى الأفراد . وانما هى تعنى بالأحكام والنسب والكميات والكيفيات. وثانيتهما هى ما تدعى بالعدالة التوزيعية ؛ وهى التى ترشــد الدولة فى توزيع الرتب والألقاب والأموال . وهى لون من ألوان العدالة الاجتماعية النسبية التى تعتمد على مبدأ التمييز بين الطبقات ، وهو لا يعتبر سوى الكيفيات الاجتماعية والمكانات الخاصة .

ولقد سادت هذه التعاليم بين أهل العصور الوسطى سيادة تامة حتى أنهم لم يعرفوا غيرها ، الى أن جاء المحدثون فاستطاعوا ـــ بعد لأى ومقاومة عنيفة من جانب الرجعيين ـــ أن يستبدلوا بهذا التمييز القائم على نظام الطبقات مبدأ التمييز الناشىء عن القيم الشخصية ، وجعلوا يتباهون بهذا التطور العظيم ويعزونه الى علمائهم ومفكريهم حاسبين أنهم لم يسبقوا اليه من الشرق . وقد فات أولئك المتباهين أن الاسلام قد سبقهم وسبق جميع المتقدمين بأربعة عشر قرنا الى مبدأ تقدير القيــم الشخصية والمجهودات الخاصة تشجيعا للعاملين وتقريعا للخاملين لتصلح حالة المجتمع ويسوده التنافس على الخير والتسابق الى الانتاج .

أما المنهج الذى يأمر الاسلام بسلوكه مع غير المؤمنين ، فهو دائما مؤسس على العــدل والانصاف والوفاء بالعهد ، والأمانة للالتزام ونبذ التحلل من الوعد « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » (آية ٣٤ من سورة الاسراء) « ان الله لا يحب كل خوان كفور » (آية ٣٨ من سورة الحج) « وأوفوا بعهد الله

اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيـدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعـلون » (آية ٩٢ من سـورة النحل)

وأكثر من ذلك أن القرآن يأمر المؤمنين بأن يعاملوا غير المؤمنين خير معاملة ويختصهم بالذكر بعد أن أمر أتباعه بالعدل العام دون التقيد بجنسية من يتبعون معه العدالة ولا بدينه ولا بزمانه . وينص على السماح للمسلمين بأن يتقدموا الى غير أتباع دينهم بالود والبر اذا عاش أولئك القوم معهم فى سـلام ووئام ولم يتحدوهم أو يعتدوا على حرماتهم أو يقتحموا مقـدساتهم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (آية ٨ من سورة الممتحنة) .

ولا جرم أن هذه أخلاق مثالية تلك التى يرسـمها القرآن للمؤمنين ، بل هى خليقـة بأن « تقطـع قول كل خطيب » فيما يتعلق بالمسالمة والمصافاة وحسن العشرة وسمو المعـاملة وطيب الجوار . وليس هذا فحسب ، بل هو قد رسم لهم خطتى السلم والحرب ، وأمرهم أن يتشبثوا بالأول تشبثا تاما وألا يرضوا به بديلا الا اذا تعذر وسدت أمامهم كل أبوابه ، وتقطعت بهم جميع أسبابه ، وحال سوء نية أعدائهم دون تحقيقه ومنعهم العدوان أو الطغيان عن تطبيقه . فعند ذلك فقط يزاولون الحرب مكرهين

ولكن لا كارهين ، ويهبون الى المعمعة راضين مغتبطين ، ولكن مدافعين لا مهاجمين ، ومجاهدين غير باغين ولا عادين ... حتى اذا رغب أعداؤهم فى السلام كانوا مستعدين لقبول الوئام : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (آية ٦١ من سورة الأنفال) . « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا » (آية ٩٤ من سورة النساء) .

يبين اذن أن الوفاء بالعهد ، والأمانة للميثاق الذى يقطعه المرء على نفسه يمثلان الكمال الأعلى لفكرة العدالة الخلقية وذلك لأننا لو تأملنا فى احترام الانسان لحقوق الله وحقوق الأناسى ، لألفينا أن فكرة العدالة مرتبطة أشد الارتباط بفكرة الحقوق من حيث هى . ولا غرو فادراك الصلة بينهما على هذا النحو هو ادراك عام مشترك لأنه يفصح دائما عن الفكرة القانونية التى مؤداها : أنه لا عدل الا ما يتطابق مع القانون الذى يضمن لكل ذى حق حقه .

غير أنه بينما أن الحقوق هى مجموعة القواعد المتبعة فى مجتمع معين ، والتى هى قابلة للمطالبة بتنفيذها ولو بالقوة اذا دعا الأمر الى ذلك يشاهد أن العدل معتبر على أنه هو الشعور بتلك الحقوق أو أنه الارادة الباطنية الدافعة الى احترام هاتيك القواعد . وبالاجمال أن كون الشخص عادلا معناه أنه يريد تنفيذ هذه الحقوق . ونحن نستطيع الجزم هنا بأنه لا يوجد فى أى تشريع آخر غير الاسلام أن فضيلة العدل تتمثل فى هذا

الطهر بتلك القوة التى تبدو فيها بين مبادىء هــذا الدين بازاء هذه الفكرة السامية • وهذا المظهر هو النيــة الصادقة المنعقدة على الوفاء بالعهد واحترام الميثاق • « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » (الحديث الأول من البخارى) •

ولا جرم أن الباحث عندما يصل ـ فى بحــوثه عن مبادىء الاسلام ـ الى هذا الحد من الجمال والجلال يقف مبهــوتا بل مشدوها أمام هذا السمو القمين بأن ينير ظلمات الدنيا كلهــا لاسيما اذا وازن بين هذه المبادىء الرفيعة وما يقرؤه ويســمعه فى كل يوم ـ بل فى كل ساعة من نهار أو ليل ـ من فيهقة المتفيهقين وتشدق المتشدقين باسم الخير والعدل وحقوق الانسان ، وهم أبعد ما يكون عن الخير . وأبغض ما يكون للعدل ، وأجحد ما يكون لحقوق الانسان • وهم اذ يرفعون الصوت عاليا بحماية هذه المبادىء السامية والسهر على تنفيــذها لا يضمرون لها فى دخائل أنفسهم الا كل غدر وخيانة وعداء ، بل هم يتربصون بها الدوائر ليهجموا عليها وعلى مؤيديها هجوم الطاغية الفاجر ، بل الوحش الكاسر • فانظر بربك هــذا الفرق الظاهر بين هــذا الفجور الداعر ، وذلك الســمو الســاحر الذى تتلألأ أنواره ، وتستطع أبهاؤه فى ذلك الحديث الخالد الذى يقدم النيات على الأعمال • بل يجعل النية هى الفارق الأول بين الدمامة والجمال، بل بين النقص والكمال ، ويحصر فيها كل قيمة وجلال ، فيثبت بذلك للاسلام أرقى نموذج وأروع مثال •

المُسَاوَاةُ الإِسْلَامِيَّة

انتهت هذه المجهودات الى أن اتخذت بازاء فكرة المساواة هذا القرار الحاسم الذى مؤداه : أن المساواة بين بنى الانسان جميعا هى فى نظر الفلاسفة الروحيين والعقليين مساواة معنوية قبل كل شىء . أساسها أن جميع الأفراد متساوون فى الحياة الروحية بطبيعة وجودهم . وهذا يحول دون أدنى امتياز لأحدهم على الآخرين ، بمعنى أن يكون البعض وسائل والبعض الآخر غايات .

ولما كانت هذه المساواة بسبب معنويتها وفطرتها أساسية ، فقد وجب أن تكون جديرة بالاحترام ، وبالتالى وجب أن تتطلب مساواة مدنية وسياسية . وهذه المساواة هى التى تسمى بالمساواة أمام القانون . ولا ريب أن من أوائل معانى هذه

العبارة امكان مساهمة الجميع فى الأعمال العـامة : كل حسب كفايته ومؤهلاته ، بل ان هذه المؤهلات نفسها هى وحدها التى تمنح أصحابها الاشتراك فى تشريع القوانين ومزاولة تطبيقها .

هذا هو مجمل ما وصلت اليه المجهودات الجبـارة الجلدة التى قاسى فيها أربابها أشق أنواع العناء ، وأفدح ألوان العسف منذ العصور الأثرية الغابرة حتى الآن .

ولا جرم أن من يلقى نظرة متمعنة على صفحات التاريخ يلفيه مفعما بالمظاهر والجرائم التى نشأت من تجاهل المساواة واحتقار مبدئها ، واتخاذ فريق من بنى الانسان ـ قست قلوبهم وتحجرت أفئدتهم ـ اخوتهم فى البشرية عبيدا ، بل آلات لأغراضـهم ، وأدوات لأهوائهم ورغباتهم ، ولو أننا تتبعنا حركات المصـلحين الذين احتملوا تبعة مهاجمات هذا الطغيان لرأينا ما قاسوه من عنف وتعذيب ونفى وتشريد ، وما الى ذلك مما يثقـل كاهل الانسانية بالأخطاء والسقطات، ويملأ صفحاتها بالآثام والسيئات.

ونحن انما عنينا هنا بتصوير هذا العناء لنسـجل بحروف النور على صفحات الخلود أن الاسلام منذ أن سطعت أضواؤه بين الانسانية أعلن ـ فى صراحة ووضوح وبلا ضغط أو قسر أو اجهاد أو اضطهاد ـ أن بنى الانسان متساوون فى الخلقـة

والفطرة ، وفى المنشأ والمصير ، وأن مأتى هذه المساواة روحى محض لا أثر فيه للعوامل العرضـية التى لا تزيد ولا تنقص من القيمة شيئا لأنها طارئة حائلة .

بيد أنه لما كانت الروح شـجرة ثمارها الأخلاق السـامية والفضائل العالية التى لولاها لصارت قاحلة مجدبة ، فقد جعل الاسلام تلك الفضائل وحدها مبعث التفريق ومصدر الامتيـاز الذى يرتفع بأحـد المتسـاوين على الآخرين ارتفاعا جـوهريا له أثره ونتائجه ، وجعل الرذائل منبـع الانخفاض الذى يهبط بصاحبه الى مستوى أدنى مما كان يشغله قبل اقترافها أى حين كان الحكم للفطرة ابان حالة الاستعداد المحضة التى يستوى فيها الجميع والتى أعلن القرآن أن جميـع بنى البشر فيها سـواء ، وأنذرهم بالتفرقة والتمييز اذا هم خرجوا عن العهد وتمردوا على الميثاق . وتابع النبى القرآن ففصل ما أجمله ، وبسط ما أوجزه.
وبهذا هتف لسان الحال قائلا : قد أعذر من أنذر ، وقد قبل الانحدار عن المستوى الفطرى من طغى وتجبر ، أو فسق وفجر.

وبالاجمال خرج على الحالة الفطرية ومرق عن الاسـتقامة الطبيعية فاستحق الحرمان من التكريم ، واستوجب الطرد من المساهمة فى ذلك الفيض العميم الذى تفضل به العليم الحكيم على

بني الانسان عند الميثاق القديم الذى عاهدوه فيه على الاعتراف بربوبيته وعبادته ، وشرفهم باقتران شهادتهم بشهادته ، ثم تجلى عليهى فأنبأهم بتفضـيله وتكريمه ليتفانوا فى اتفـائه وتعظيمه « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان آكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير (آية ١٣ من سورة الحجرات) . « يأيها الناس اتقو ربكم الذى خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجهـا وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (آية ١ من سورة النساء) . « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعـل منها زوجهـا » (آية ١٨٩ من سـورة الأعراف) .

ومما لا شك فيه أن هذه نظرة دقيقة عميقة لا يستطيع أجرأ الخصوم النزهاء أن يخفوها أو يتجاهلوا مرماها الخلقى العظيم أو يجحدوا مغزاها الاجتماعى الشامل فيرموا الاسلام كما رماه بعض المتجنين عليه من المستشرقين بأن مساواته ليست انسانية ، اذ لو كانت كذلك لما جعلت الايمان أو التقوى أساس الصعود أو الهبوط . والا فهل فقد الملحـد انسانيته حتى ينحـدر مستواه مع الانسان المؤمن ؟

ولسنا ندرى كيف يستسيغ أولئك المتحـاملون أن يفقـد الخائن أو المزور أو السارق حقوقه السياسية والمدنية ، وبالتالى

يفقد كرامته واعتباره الاجتماعيين ومساواته لنظرائه ثم لا يجدون في هذا غضاضة على حكم القانون أو افتياتا على أمر المجتمع كما يجدون في حكم الاسلام مع أن الحالة واحدة : أى أن المساواة فطرية بسبب وحدة الأصل والعنصر . وأن الامتياز الى أعلى ، والانخفاض الى أدنى عارضان ولكن لا بسبب غنى أو فقر . أو قوة أو ضعف ، أو جد أو خمول أو ما شـاكل ذلك من الأمور الاجتماعية الحائلة بل لذلك السبب الرئيسى الذى هو أسـاس العمران ومصدر نظام الحياة وانسجامها . وهو الخير والشر ، أو الفضيلة والرذيلة اللتان من تحلى بأولاهما سما . ومن اقترف ثانيتهما هوى عن المستوى وأهدر كرامته بسلوكه ، وتنازل عن مكانته بارادته .

وأيا ما كان ، فان مبدأ المساواة الاسلاميـة فطرى يرجـع تاريخ تأسيسه الى ابداع الله النفوس البشرية أولا ، ثم الى جعله هذه النفوس طرفا آخر معه جل جلاله فى الميثاق الذى ارتبط به أمامه فى عالم ما وراء الأشباح ثانيا . والذى احتوى فى داخله على انذار كل من يغـدر أو يخون العهـد بالهوى عن مستوى الآخرين ، وبالتالى انذار بفقد كل ماله من حرمة وكرامة وعزة وحقوق انسانية .

وهذا هو عين العدل المثالى الذى حاولت القوانين الوضعية أن تحاكيه فى معاملة ذوى السوابق وسيئى السير والسلوك ، فلم يعترض عليها أحد من أولئك المتجنين ، بل كانت موضع احترامهم جميعا ، مع أنها لم تظفر من القوانين السماوية الا بصورة ضئيلة باهتة ، فما بالهم يأخذون ذلك على الاسلام رامين مساواته بأنها غير فطرية ، منشؤها الايمان والتقوى ، وهما عارضــان طارئان على المؤمن التقى وليسا ذاتيين فيه ؟!

بان من كل ما تقدم أن المساواة أمام القانون فى نظر الاسلام فطرية ، وأن الفرد لا يفقدها بأى عامل أو لأى سبب غير هويه عن مستوى الفطرة السامية الى حضيض الرذيلة والاثم ، وأن الذين يأخذون على الاسلام هذا الحكم انما هم ضالون مفتاتون متناقضون مع أنفسهم فى نظرتهم الى القوانين الوضــعية بازاء السوابق من المجرمين نظرة الموافقة والقبول ، والى الاسلام نظرة التجنى والتعسف ، وأن هذا ينزل بهم عن منزلة العلماء النزهاء .

الاتِّحَادُ الإِسْلَامِى

مؤسس على الوحدة العقيدية

مما لا سبيل الى الشك فيه أن جميع العلماء الأدقاء الذين تخصصوا فى دراسة التاريخ العام ، وتعمقوا فى وقائعه ، وحللوا أحداثه قد اتفقوا بالاجماع على أن جميع الشعوب والأصقاع التى فتحها الاسلام كانت كأنها فى انتظاره ، أو على موعد معه تتلهف على تنجيزه بفارغ الصبر ، وأن سيوف المسلمين الفاتحين لم تزد على أنها كانت تزيل القشرة الخارجية التى كانت تحجب تلك الشعوب عن مشاهدة هذا النور المتلألىء ، فلما زالت هذه القشرة العارضة الحاجبة ، وسطع عليهم ذلك الضوء السماوى الذى ملك أفئدتهم قبل أن يبهر أعينهم ، وجد القلوب معدة ، والنفوس مستعدة ، والأجواء مهيأة ، والأرض ممهدة ، والطرق معبدة لاستقباله ، بل لاحتضانه واعتناقه بصورة لم يسبق لها فى

هذه الحياة نظير . فتثبتت أقدامه ورسخت قواعده وأركانه فى جميع البلاد التى شرفها بفتحه ، وأنقذها بسبادئه من الظلمات الى النور وأغاثها من الباطل والضلال ، والظلم والشقاء ، وأرشدها الى الحق والهدى والعدل والهنـاء ، وقد عرفت هذه الشعوب قيمته ، واعترفت بفضله عليها فعضت عليـه بالنواجذ ، وكانت النتائج المنطقية ، بل الطبيعية لهذا أن الاسلام ــ رغم الظـروف السيئة التى مرت به بعد عصوره الذهبية ــ قد ظل يمتد ويتسع من نفسه وبذاته أى دون تدخل العـوامل الخارجية حتى كسا رقعة الأرض من شواطىء الأطلنطى الى شواطىء المحيط الهادى جامعا تحت رايته شعوبا من أجناس مختلفة ، وأرومات متعارضة، وألوان متباينة ، وأجواء متضادة ، ضاربا بكل هذه الاختلافات الظاهرية عرض الأفق متمسكا بمبدأ واحد هو : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (آية ١٣ من سورة الحجرات) .

وهكذا بقى ذلك التراث العملاقى سليما من أية شائبة مدى أربعة عشر قرنا من الزمان لم تنل منه أى منال تلك الكوارث المتلاحقة التى جعل الاستعمار البغيض يصبها على مبادئه ، وعلى رؤوس معتنقيه واحدة تلو الأخرى ، بل ان تلك القوة الذاتية الناشئة من قواعده التأسيسية ومقدرته على التغلغل والامتداد بلا عون خارجى قد طفقتا تزيدان وتتضاعفان فى وسط هذه العواصف الهوج ، والأعاصير الجائحة كما يسجل ذلك الأستاذ المستشرق

« بييروند » مدير مركز الدراسات العليا فى افريقيا وآسيا الحديثتين فى كتابه «الاسلام ومسلمو اليوم» اذ يقول مانصه :

« من الموقن به أن تقدم الاسلام ليس ثابتا ولا مستمرا فقط ، أو أن سرعة استماره تزيد باطراد فحسب . بل انه فى مجموعه أسرع من تقدم المسيحية » (ص ٤٢ من المجلد الثانى). فاذا أضفنا الى ذلك أن للمسيحية مبشرين ودعاة لا يحصيهم العد ، وأموالا طائلة تنفق سهلة رخيصة فى انشاء المدارس التبشيرية ، والمستشفيات المجانية المثمرة فى العلاج ، اذا أضفنا هذا كله تبين لنا أن الاسلام يحتوى على قوة واضحة من الحقيقة العقيدية التى لا يتطاول الى عليائها أى دين آخر . وهذه الحقيقة هى التى تدفع العقول الى اعتناقه بلا قسر ، بل فى حرية كاملة ؛ لأن جميع الأنظمة الصناعية لاتحيا الاحقبامحدودة، بل قصيرة لا تلبث أن تزول عند ما تنهار القوى المادية التى فرضتها فرضا وأرغمت الأمم على الخضوع لها ، هذه هى سنة الناموس الكونى الذ ىيزيل المسببات عندما تزول العوامل التى كانت تسند كياناتها أو تتضافر على منحها الوجود .

أما الاسلام فليس من هذا النوع البتة ، لأنه لم يفرض بالعنف رغم ما يتخرص به المغرضون من أنه غزا البلاد التى فتحها بالسيف « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » . نعم كذبوا فى هذه الدعاوى الباطلة ، لأن سيوف

المسلمين الفاتحين لم تزل ــ كما أسلفنا ــ الا القشرة السطحية التى كانت تحجب نور الاســلام عن تلك الأمم ، وبالتالى كانت تحول بينها وبين الهناءة والسعادة ، ومن آيات ذلك أن هــذا النور السماوى عنــدما زالت من أمامه تلك الحجب تغلغل الى أبعد حدود أعماق القلوب والعقول فى أفراد تلك الشــعوب ومجتمعاتها ولم يبق منحصرا فى الطبقات الحاكمة التى لا تلبث أن تلفظ العقائد التى فرضت عليها فرضا وتنبذها فى سرور عند ما تتغير الظروف ، ولو أن الاســلام كان قد دخل تلك البلاد بالعنف والاكراه ، لحاولت الأمم المفتوحة أن تتخلص منه كلما حانت لها الفرص ولما عضت عليه بالنواجذ على هذا النحو الذى يشاهده ويشهد به الأعداء قبل الأصدقاء .

وهنا قد ينشأ سؤال ، مؤداه : من أين أتت الى الاسلام هذه القوة الذاتية ، وتلك الجاذبية التى لا يقوى على مقاومتها كبير ولا صغير ؟ والاجابة على هذا السؤال هى : أن مبادئه التأسيسية تتجاوب مع حاجات الانســان الفطــرية الى الايمان والشعور والعمل ، وهذا التوثب الدائم المركز فى الانسان هو منبثق من غريزة منطقية ، أو من منطق غريزى كائن فى أعماق كيانه مهما يكن جاهلا او معدوم الثقــافة والاستنارة . ومعنى هــذا ان الايمان منبثق من غريزة منطقية، هو ان الانسان بفطرته لايستطيع ان يقبل حقيقة عقيدية معرضة للتباين مع حقيقة عقيدية أخرى ،

أو تشرخ فتصير معرضة لحلول عقيدة أخرى محلها بينما أن سلسلة طويلة من مبادىء انسانية متينة لا توجد فيها ثغرة ، ولا يصيبها صدع ، وطرفها متعمق الى الأصول الأولى ، هى تملأ قلبه بالثقة واليقين ، ولهذا وحده كانت المبادىء القرآنية المشتملة على الوحدة والعمومية ، بل الكونية والثبات تبدو ـ فطريا ـ للعقل كأنها هى ذات التعبير عن الحقيقة العقيدية .

ومما هو جدير بالايضاح هنا أن هذه الوحدة القرآنية قد انبثقت قبل كل شىء من التوحيد الذى هو المبدأ الأول للاسلام والذى كان موضع الصدور والصدارة فى عقيدته، اذ أن الاسلام كله يتكون من الاعتقاد باله واحد لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ند ، ولا مثيل ولا شبيه ، ولا قسيم . والخضوع والامتثال لأوامر هذا الاله الواحد الواردة فى كتابه الكريم ، أو على لسان نبيه الجليل الذى لا ينطق عن الهوى ، وانما كل أقواله وأفعاله وحى يوحى . ولا ريب أن هذه العقيدة التوحيدية التى تبدو فى ظاهرها بسيطة تتخذ فى القرآن هيئة ذات قوة وجلال منقطعى النظير ، وقد أدرك أدقاء المستشرقين المتعمقين النزهاء هذه الحقيقة وما تنتجه فى نفوس المؤمنين من نتائج فردية واجتماعية، اذ أنها لهم بمثابة مبدأ مرشد ذى قوة استثنائية يعبر لهم بديا عن وجود الاله الخالق المجازى الخير بخيره ، والشرير بشره « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (آيتى ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة) .

وبعد ذلك يكون هذا التوحيد رمزا لجهود المسلمين المبذولة لتحديد غاية معينة لكل عمل من أعمالهم المتعددة ، ولتوجيه هذه الغايات الفردية كلها نحو الغاية النهائية العظمى التى هى المبـدأ الأول والغاية الأخيرة المعبر عنها « بكلمة التوحيد » .. لا اله الله وحده « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وأخيرا ينبغى أن تتبين أن هذا التوحيد العقيدى يتكشف عن معنى عظيم يفيض على المجتمع النظـام والخيـر والتماسك والسعادة ، اذ أنه يتضمن وحدة أخوية حرة واسعة النطاق تربط بين الأمم دون أن تستعبد احداها الأخريات ، أى أن مبادىء الاسلام الحقيقية لا تفرض على دولة أن تقيس نفسها على أخرى، أو أن تحاكيها فى أنظمتها الخاصة بل هى تترك لكل منهما تمام الحرية فى الاختيار والعمل ما دام أنهـا جميعها تستظل براية الكتاب الـكريم والسنة الغراء دون أن تضيق على نفسها مسالك الحياة « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . ولا جرم أن هذا الاختلاف فى الأنظمة الداخلية ، لا يتعارض مع الاتحـاد الروحى الذى يكون الأسرة الاسلامية الكبرى التى تعيش فى رحاب الايمان وتحت راية الاسلام عيشة السلام والوئام .

على أن هذا التوحيد العقيدى المنتهى الى الوحدة المتينة ، لم يبدأ بظهور الاسلام ، بل بدأ متجها الى بنى الانسان جميعا منذ الميثاق الأول : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن

نقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » (آية ١٧٢ من سورة الأعراف) . ومن هذا الميثـاق الأول الذى يصوره لنا القرآن أسمى تصوير وأكمله ، يتبين لنا أن الله جل وعلا قد أفهم البشرية قبل حلول أرواح أفرادها فى أجسامهم ، انه هو الأحد الخالق المنعم المتفضل الجدير بالمعرفة والعبادة ، وأنه أخذ عليهم العهد والمبثاق جميعا ألا يعبدوا الا اباه .

ولا ريب أن هذه التسوية الكاملة أمام الميثاق والتى تتفق أتم الاتفاق مع قول القرآن : « يأيها الناس اتقـوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ... » (آية واحدة من سورة النساء) وقول النبى الجليل « الناس كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » أقول : ان هذه التسوية ذاتها هى التى أبلغ عنها ذلك الرسول الصادق الأمين بقوله : « كل مولود يولد على الفطـرة ، وانما أبواه همـا اللذان يمجسـانه أو يهـودانه أو ينصرانه » وهذا المعنى العميق هو الذى رمى اليه القرآن حين قال عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام : « ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفامسلما وماكان من المشركين» (آية٦٧ من سورة آل عمران) أى أنه كان على دين الفطـرة . ولقـد سمعنا من أحد المتفيهقين من أنصاف المتعلمين اعتراضا على هذا التعبير القرآنى ، وتهكما متشـدقا ، مؤداه أنه كيف يوصف ابراهيم بأنه مسلم وقد وجد قبل الاسلام بأكثـر من عشرين

قرنا !؟ فألقمناه حجرا بقولنا : « ان معنى الآية الشريفة هو أن ابراهيم كان على دين الفطرة الذى لا فرق بينــه وبين الاسلام ألبتة » .

كانت التسوية التى نص عليها القرآن بين بنى البشر جميعا اذن موجودة وتامة ولم تحدث التفرقة الا فيما بعد ، وبأسباب خارجية ، وعلل أجنبية ، دعت اليهــا الأغراض والأهواء ، أو العوامل التى لم يكن بد من طروئها على الأناسى كنقض العهد ، ونسيان التعاليم الالهية « فبما نقضهم ميثاقهم لعنــاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » . (آية ١٣ من سورة المائدة) .

أو كتحريف كلام الله ونشــويه تعاليمــه وجعلها دميمة فى ألفاظها ومعانيها « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (آية ٧٥ من سورة البقرة) أو كالخضــوع للأهواء واتبــاع الأغراض التى تصــد عن التعاليم الالهيــة ولو كان المغرضون يعرفونها كما يعرفون أبناءهم « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» (آية ١٤٦ من سورة البقرة) .

ومما يسترعى الانتباه فى هذه المناسبة أن معرفة هذا التوحيد المبدئى لدى المسلمين عن طريق القرآن الذى حدثهم عن الميثاق

الأولُ قد سمحت لهم بأنيدركوا هذه الفطرية أكثر من غيرهم من أهل الأديان الأخر ، اذ أن الأستاذ (زانكير) المستشرق الالمانى يسجل ذلك فى مقدمة كتابه ؟ تاريخ الفلسفة الصينيه » اذ يقول ما نصه :

« ان المبشرين المسيحيين الذين كانوا أول من عنوا بالفلسفة الصينية ، قد ذهلوا من عمـق النظريات الأخلافية ونقـائها . وأجمعوا على أنه لا يمكن شرح هذه الظاهرة الا اذا آمنوا بأن الاله قد أوحى الى الصـينيين كمـا أوحى الى اليهـود ، وأن « شانج ـ تى » ليس سوى اله الكتاب المقدس ... وفوق ذلك فان عظمة الأخلاق الصينية ونقاءها كانا يبـدوان غير مفهومين لدى المسيحيين الأوربيين لولا أن فرضوا نظرية الوحى الالهى فى تلك الأصقاع » .

ولا ريب أن هذا يؤيد ما قلناه مرارا فى هذا الصدد : من أن الميثاق الأول قد شمل الجميع ، وان الرسالات السماوية قد أرسلت الى الكل بلا استثناء ، ومن ثم فان هذا الذهول الذى أصاب الأوروبيين عندما ألموا بالألوهية والأخلاق الصينيتين لم يصب المسلمين أدنى اصابة ، لأن القرآن قد آثار لهم هذا الجانب الأساسى من جوانب الحياة فأدركوا أن الله جل شأنه قبل الوحى الاسلامى ، لم يهمل أية بقعة من بقاع الأرض دون رسالة هى واحدة فى كل مكان وكل زمان ، ولا تختلف الا فى التفاصيل

التى تلتئم مع العقليات المتباينة التى يتفق بعضها مع هذه الرسالة، وبعضها مع تلك ، ولكن العـدالة الالهية لم تحرم أحدا هـذا الفضـل الماثل فى الرسالات جميعها ؟ « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (آية ٢٤ من سورة فاطر) •

ومن الآيات الواضحات فى هذا الشأن أن «أفلاطون» حكيم أثينا الذى تتلمذ على كهنـة مصر كنانة الله فى أرضه (كما قال النبى عليه صلوت الله وسلامه) فعرف من أساتذته أسرار الدين الفطرى ومكنوناته ثم سجل فى مؤلفاته عن الألوهية تسجيلات جعلت أعلام المفكرين يطلقون عليه اسم « أفلاطون الالهى » وأنه أول من جعل العدالة مركز الفضائل وأنه أول من ربط السياسة بالأخلاق ذلك الربط القوى المحكم الذى لم تستطع القـرون الطويلة أن تفصم عـراه ، بل ان الساسـة المعاصرين الضالين المضلين لا يزالون حتى الآن يتحككون بالمبـادىء التى وضعها هذا الحكيم منذ أربعة وعشرين قرنا •

وليس هذا فحسب ، بل ان من يلقى نظـرة متفحصـة على « الفيدا » كتاب الهنود المقدس يسترعى نظره ، بل يبهره فى كل خطواته ما يلقيه فيه من فكرة الاله الأحد ولو أنهـا غطيت فى كثير من الأحايين ــ بقشور صـدفية تلتئم مع عقليـات العامة وخرافات الجماهير • ولكن قد بقيت أضواء دين الفطرة فيهـا ساطعة متلألئة تتجه مباشرة الى قلوب الأتقياء وعقول المثقفين بل

ان من يتصفح تاريخ مصر الفرعونية ولم يكن قد استضاء بضوء القرآن فانه يصيبه نفس الذهول الذى أصاب المسيحيين الأوربيين عندما ألموا بالألوهية والأخلاق الصينيتين فى العصور الأثرية ، اذ أن المرء لا يكاد يلم بالديانة المصرية القديمة حتى يبهره ما يجده فيها من تصويرات دقيقة للفضائل والرذائل ، والخيرات والشرور ، والمثوبات والعقوبات المرتبطة بكل واحدة منها . وأكثر من ذلك التفاصيل الشاملة للبعث والحشر والسؤال والميزان والصراط ، وما الى ذلك مما هو بارز فى النصوص الاسلامية . ولقد انحرفت عقليات بعض المستشرقين فى هذا الصدد فسلكوا فى تعليل هذا كله مسالك ملتوية مموجة ، اذ زعموا أن الأديان التى تدعى السماوية قد أخذت هذه الصور كلها من أساطير الأديان الوثنية بدلا من أن يفهموا الحقيقة المستقيمة ، وهى أن تلك الصور المصرية القديمة ليست سوى بقايا ظلت محفوظة من دين الفطرة الذى أوحى الى الجميع بغير استثناء ، والذى هو فى ذاته فكرة عقلية بلغت أقصى الدرجات وأسماها .

غير أن سؤالا لابد منه يعرض هنا بطريقة طبيعية ، وهو : « ما الذى سوأ هذه الفكرة الفطرية لدى بعض الشعوب وغير من معالمها وشوه جمالها ، وبدل أهدافها لدى البعض الآخر ؟ » .

والاجابة على هذا السؤال هى أن هذه الفكرة التوحيدية قد تغلغل فى الهداية والارشاد فى عالم هو فريسة للاخطاء والأنانية

والغيرة والحسد والأحقاد والمطامع والشهوات والأهواء والمنافع. وبالاجمال كل أسباب التباغض والتنافر والوثنية والالحاد وما الى ذلك مما أشار اليه القرآن حينا ، وأسهب فى تفصيله أحيانا فتضافرت كل هذه العوامل المدمرة على تشويه هذه الوحدة الفطرية ، وكست نورها الأزلى الأبدى بستار خارجى كثيف يحجبها عن الناس وان كان لا يستطيع أن ينال من ذاتها أدنى منال لأنها من عالم النور والخلود .

وهنا شاءت الارادة الالهية أن تتابع ايحاءات جزئية محلية خصصت لارشاد الضالين ولجمع النفوس المتفرقة المنتشرة فى أنحاء الحياة ، فجعلت تؤدى رسالاتها بقدر ما تسمح لها طبائع المرسلين الذين كلفوا بها ، وظروفهم الى أن آن أوان الرسالة القرآنية التى شرحت أصل هذا التوحيد ، وأبانت عناصر هذه التفرقة ، ثم أوضحت عوامل العودة الى الوحدة . ففى الواقع أن أضواء القرآن لم تكد تشع حتى مزقت تلك الأستار ، وبددت ظلماتها ، وكشف عن اللالاء الذى بهر العقول وأخذ بمجامع القلوب ، اذ طفق القرآن يدعونا الى العودة التامة الى الوحدة العقيدية التى رسمت خطوطا للأمة الاسلامية فى كتابها وسنة رسولها بهيئة بارزة ، اذ يوجه القرآن الدعوة الى كل فرد أن يسهم فى تحقيق الوحدة المؤسسة على التوحيد اما بواسطة الاقناع المكون من أسلوب السلام والدعة « وجادلهم بالتى هى

أحسن » . (آية ١٢٥ من سورة النحل) « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (آية ٦٤ من سورة آل عمران) .

واما عن طريق الجهود الخلقية الشخصية التى تكون القدوة المقتربة من أخلاق النبى بقدر المستطاع .

وأخيرا ينبغى أن نعيد الى الأذهان أن فكرة الوحدة المنبثقة عن توحيد المبدأ الأول هى على قسم الفكر الفلسفى ، وأن فلاسفة الاسلام الذين طال تبحرهم فى عظات القرآن ودعوته المؤمنين الى التفكير والتأمل فى أسرار الكون ؛ قد استلهموا منه طرق النظر المتنوعة ثم اتهوا بفضله الى ادراك مبدأ التوحيد وصدور الكون كله عن الأحد الذى لا شريك له ؛ وتبينوا من جهة أن المتعددات التى يكتظ بها الكون صادرة عن هذا الأحد الخالق، وان العقل البشرى من جهة أخرى قد استطاع بفضل الفيض الالهى أن يرجع هذه المتعددات الكثيرة الى الوحدة الصادرة عن الأحد ؟ « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » (آية ٥٠ من سورة القمر) .

وقصارى القول أن كشف القرآن لهذه الوحدة العقيدية ، ودعوته الى العودة اليها قد منحا الاسلام هذه المقدرة الفائقة

على الاقناع ، وتلك القوة الدفاعية التى تتقدم به يوما عن يوم فى طريق التغلغل المعنوى فى محيطات السـماوات ، والامتداد المادى فى محيطات الحياة ، والتى ضمنت له الصلاحيـة لجميع الأزمنة والأمكنة بلا استثناء والتى كانت المثل الأعلى فى رأب الصدع الذى نشأ من الانحراف عن الميثاق الأول فأحلت الجمع محل الفرقة ، ووضعت الاتحاد موضع التنابذ ، وقد أشار القرآن الى هذاكله بقوله «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقواواذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

